رحلة الصيف إلى

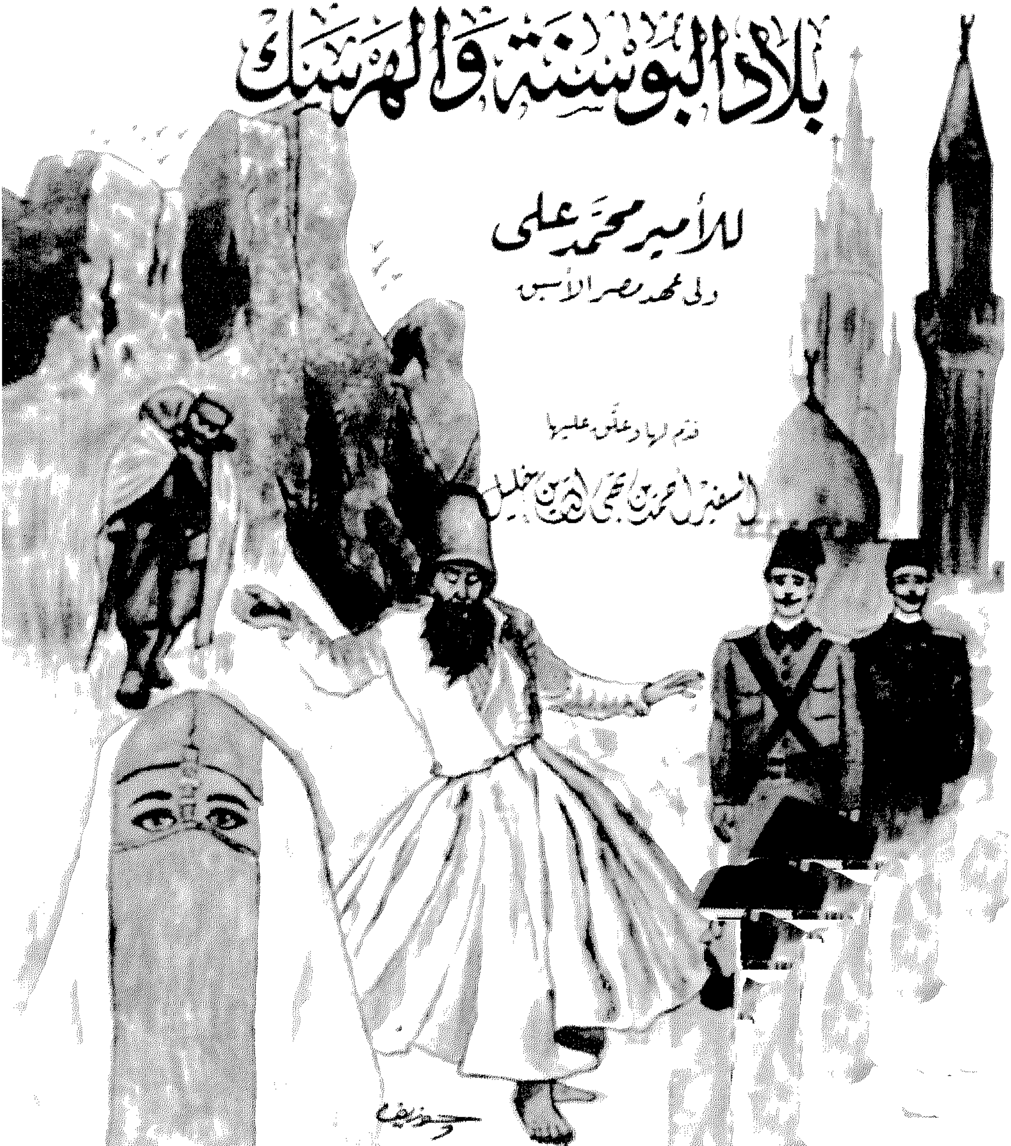
بلاد البوسنة والهرسك

للأمير محمد علي

ولي عهد مصر الأسبق

قدم لها وعلق عليها

السفير أحمد محيي الدين خليل



الناشر: مكتبة الآداب

٤٢ ميدان الأوبرا - ت: ٣٩٠٠٨٦٨

رحلة الصيف

إِلى

بلادِ البوسْنَة والهَرْسَكْ

للأمير محمد على

ولى عهد مصر الأسبق

ضبطهَا وعلّق عليها

السفير أحمدين يهى الدين خليل

الناشر : مكتبة الآداب

٤٢ ميدان الاوبرا القاهره

ت : ٣٩٠٠٨٦٨

١٤١٨ هـ / ١٩٩٧ م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقـــديم

تزداد أهمية نشر هذا الكتاب - اللطيف الحجم الخطير الشأن - فى هذه الفترة التى يتعرض فيها شعب البوسنة والهرسك المسلم لمحنة عصيبة تستهدف دينه وعقيدته وعِرضه وأرضه ؛ إذ أن فى إعادة نشره متابعةً يقظة للأحداث ، وربطًا بين ما يجرى من حولنا وما كتبه مَنْ سبقنا ، وحرصًا بالغًا على إثارة اهتمام الناس بتقليب صفحات التاريخ الإسلامى وتعريفهم بمعلومات مفيدة عن الشعوب المسلمة فى قالب مشوِّق طريف لا يكدُّ الذهن ولا يثقل على الفكر ، وإن كان يثير كوامن الأشجان ويدعو إلى مراجعة النفس وتدبر ما آلت إليه أحوال المسلمين ، ولا شك أن هذه هى الخطوة الأولى لإصلاح أمورهم وتدارك ما أصابهم ، عسى الله أن يهديهم سواء السبيل لاستعادة عزٍّ سالف ومجد غابر بعد أن ضاعت الأندلس وفُقدت صقلية وقبرص ، وكادت فلسطين ، وأوشكت البوسنة والهرسك ، وبين هذا وذاك تتهاوى الشيشان !! .

ولعل أخطر آفات مسلمى اليوم جهلهم تاريخهم ، وعدم معرفة بعضهم بعضًا ، ومن ثَمَّ رأيتُ أن أبيِّن فى إيجاز كيف دخل الإسلام ربوع تلك الديار وتغلغل فى قلوب أهليها ، فكانوا

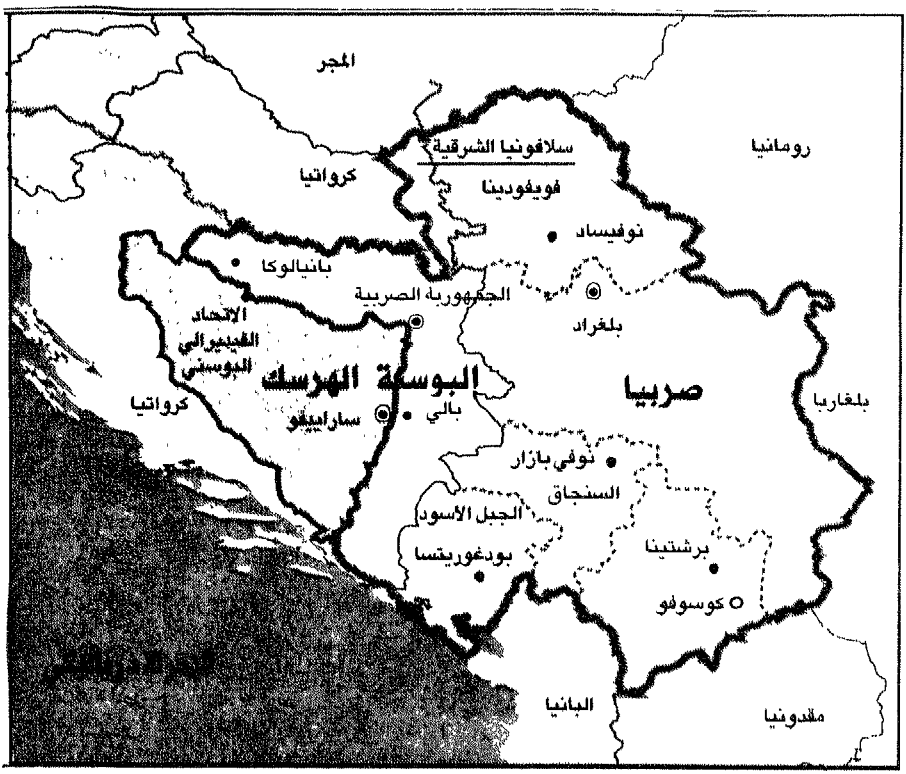
ثغراً من ثغوره الصامدة ، وقلعة من قلاعه الشامخة ، دافعوا عنه ببسالة وإيمان ، ثم كيف تطور وضعهم إلى أن بدأت النكبة التى سردت تفاصيلها وسائل الإعلام . وقد فاقت فظائعها ما سجله تاريخ البشرية مِنْ قَبل من فظائع يَنْدَى لها جبين الإنسانية ، ولا تدانى جرائمها ما ارتكبه عتاة المجرمين من آثام وشرور .

ولعل من المناسب أن نتعرض أولاً لموجز تاريخ البوسنة والهرسك من قبيل الفتح الإسلامى لها إلى بداية الأحداث المعاصرة التى نتجت عن تفكك الاتحاد اليوغسلافى ، ثم نعرض بعد ذلك إلى سرد نبذة موجزة عن سيرة المؤلف رحمه الله ، وأسلوبه ونهجه فى كتابة رحلته .

موجز تاريخ البوسنة والهرسك من قبيل الإسلام إلى وقتنا الراهن :

● فى عام ١٣٦٤ م تكوّن بتحريض من البابا تحالف من المجر والصرب والبوسنة وبعض أمراء رومانيا ضد المسلمين العثمانيين ، ولكن البطل العثمانى آيل بك انتصر عليهم قرب أدرنه (عاصمة العثمانيين آنذاك) فى معركة صنديقية الصرب ، وكانت تلك أول معركة يشترك فيها ملك البوسنة المسيحية ضد العثمانيين .

● فى ١٣٧٢ م عبر العثمانيون نهر فردار وسيطروا على الصرب والبوسنة وألبانيا ودلماسيا ، ووصلوا شاطىء الأدرياتيك ، كما استولوا على أقاليم فى اليونان . وكان عماد الجيش العثمانى فى هذا فرقة المغيرين التى يتوارث الأبناء عن الآباء الانتماء إليها ، وكانت تتولى الغارات الفجائية على إقليم العدو وتخريب أراضيه



خريطة البوسنة والهرسك

والقيام بعمليات الاستطلاع وحراسة الطرق والجسور . وكان للفرقة ثلاثة مراكز فى البلقان هى بلغاريا والصرب والمورة . وقد تعددت غارات المغيرين على البوسنة وكرواتيا فى الربع الأخير من القرن الخامس عشر الميلادى ، واستمروا قوة ذات شأن حتى آخر القرن السادس عشر .

● فى ١٣٨٤ م أغارت قوات المغيرين بقيادة أمير أمراء الروملى (المقاطعات العثمانية فى البلقان) على البوسنة والهرسك .

● تحالف ملكا الصرب والبوسنة ضد العثمانيين واستطاعا هزيمة العثمانيين بمساعدة ملك البلغار فى معركة بلوشنيك ، وبعد هذه الهزيمة تدعَّم هذا التحالف بانضمام الرومانيين وقسم من الألبان لطرد العثمانيين من البلقان ، ولكن السلطان العثمانى مراد الأول استطاع إغراء بعض أمراء الصرب والألبان بالانسحاب من هذا التحالف ، ثم هاجم بلغاريا سنة ١٣٨٨ م وهزمها ، واستسلم ملكها وتعهد بدفع الخراج ، وهكذا أصبح وسط بلغاريا خاضعاً للحكم العثمانى .

● وفى العام التالى واجه العثمانيون تحالفا جديدا بين ملكَيِ الصرب والبوسنة وأمير قوصوه وبعض أمراء الأرناؤوط ، ودارت المعركة فى صحراء قوصوه ، وانتصر العثمانيون بقيادة السلطان مراد الأول وقُتِل ملك الصرب فى المعركة ، ولكن تمكن أحد أصهاره من طعن السلطان واغتياله ، وقد نتج عن معركة قوصوه القضاء على استقلال مملكة الصرب طوال فترة احتفاظ الدولة

العثمانية بقوتها ، ومهد السلطان مراد الأول بانتصاره الطريق للفتوحات التالية فى كل من رومانيا وألبانيا واليونان والبوسنة ٠

● بدأ الفتح العثمانى للبوسنة عام ١٣٨٩ م ، وتكرر الهجوم عام ١٣٩١ ، ثم كان انتصار العثمانيين عام ١٣٩٦ على حملة صليبية اشترك فيها البوسنيون مع عدد من الدول الأوربية بزعامة المجر ومنها أيضا فرنسا وانجلترا وبولندا ، وتولى القيادة العثمانية السلطان بايزيد الأول ، وكانت المعركة الحاسمة على نهر الدانوب بالقرب من قلعة نى بولى ٠ وحتى يتفادى ملك البوسنة التهديدات العثمانية عرض من تلقاء نفسه أن يزيد الخَراج المفروض عليه ، وذلك فى عهد السلطان مراد الثانى ٠

● وبعد أن سقطت القسطنطينية على يد محمد الفاتح عام ١٤٥٣ م ، نشط بابا روما فى الإعداد لحرب صليبية توقف الزحف العثمانى على أوربا ، وكان من المتحمسين لذلك ملك البوسنة ودوق الهرسك ، وزادت تحركات أعضاء هذا الحلف الصليبى خلال عامى ١٤٦١ ، ١٤٦٢ ، مما دفع السلطان محمد الفاتح إلى أن يقرر حسم مشكلة البوسنة نهائيا بفتحها ، خاصةً بعد أن سجن الملك البوسنى رسل السلطان الذين أوفدهم إليه لطلب المتأخر من الخراج ، فتوجه السلطان على رأس جيشه فى مايو سنة ١٤٦٣ واستولى على العاصمة وقبض على الملك وأعدمه لدوره فى التحالف الصليبى ولسجنه للمبعوثين العثمانيين ٠

● وأصبحت مملكة البوسنة ولايةً عثمانية ، وصنَّف العثمانيون أهلَ البلاد (الذين أُطلق عليهم اسم البوشناق) إلى

ثلاث فئات : الأولى: هى الطبقة الفقيرة وقد تُركت فى مواطنها تمارس حياتها العادية ، والثانية: هى الطبقة المتوسطة وقد تم أسر شبابها وتجنيد قسم منهم فى الجيش العثمانى ، أما الثالثة: فهى طبقة الأغنياء، وقد تم ترحيل القسم المهم منها إلى العاصمة العثمانية القسطنطينية التى أصبح اسمها استانبول ، وذلك وفقًا للتقاليد العثمانية للحيلولة دون قيامهم بأى نشاط معادٍ للسلطة الجديدة ،ولإبعادهم عن مناطق نفوذهم،وقطع صلتهم بأتباعهم .

● طبَّق السلطان محمد الفاتح المبدأ الإسلامى الخالد « لا إكراه فى الدين » ، وقد رحّب أهل البوسنة بذلك خاصةً، وقد كان لهم فى المسيحية مذهب يخالف الكنيستين الأرثوذكسية والكاثوليكية ؛ وهو مذهب بوجوميل الكاهن البلغارى . ومع ذلك فقد اهتدى البوشناق إلى الإسلام فى فترة قصيرة ، وقدَّموا نماذج رائعة لأبطال مجاهدين وقادة عسكريين ومسئولين سياسيين شغلوا أهم المناصب العسكرية والسياسية والإدارية فى السلطنة العثمانية . وقد تولى عدد من البوسنويين منصب الوالى فى مصر حين أصبحت ولاية عثمانية بعد غزو سليم الأول لها سنة ١٥١٧م، كما اختير بعضهم كصدر أعظم للباب العالى وهو ما يوازى رئيس وزراء الدولة العثمانية . وفى نطاق التسامح الدينى الذى ينتهجه الإسلام الحنيف ، سمح السلطان محمد الفاتح للكاثوليك من خارج السلطنة بالقدوم إلى البوسنة لاستغلال الأراضى المهجورة مما أدى إلى بقاء المسيحية إلى جانب الإسلام .

وقد ظهر أثر الإسلام سريعًا على البوشناق ؛ إذ بدا ذلك فى

مظاهر تقدمهم وتشييد المدن ذات الطابع الإسلامى بما تتضمنه من مساجد ومدارس وأسواق ، وكانت أهم هذه المدن سراييفو عاصمة البوسنة والتى أطلق عليها السلطان محمد الفاتح اسم سراى بوسنة نسبةً إلى القصر الذى بناه على نهر البوسنة ليكون مقراً للحكومة .

● وفى نفس عام احتلالهم البوسنة استولى العثمانيون على بعض القلاع فى دوقية الهرسك ، فأعلن دوقها ستيفان قصاريتش خضوعه للعثمانيين وقدَّم ابنه الصغير رهينةً على ولائه ، وقد اعتنق الابنُ الإسلام والتحق بخدمة السلطان وصار وزيراً أعظم بعد ذلك ، أما الأب فقد مات عام ١٤٦٧ ، واختلف أولاده الآخرون على خلافته مما أدى إلى خضوع إقليم الهرسك كله للسيادة العثمانية .

● حاولت كلٌّ من المجر والنمسا فى فترات متفرقة الهجوم على البوسنة واستعادتها من العثمانيين ، ولكن محاولاتهما باءت بالفشل . وكان لأهل البوسنة وولاتها دورٌ هام فى الحروب العثمانية فى أوربا ضد المجر ورومانيا والنمسا وروسيا والصرب والمدن الإيطالية وبولندا .

وإلى جانب التحالفات الصليبية العديدة ضد الدولة العثمانية باعتبارها دولة الخلافة الإسلامية ، والتى كان يأخذ زمام المبادرة فى الدعوة إليها ورعايتها البابا فى أغلب الأحيان ، كانت هناك التحالفات السياسية ضد الدولة العثمانية باعتبارها قوة عظمى ذات وزن كبير خطير من الناحيتين السياسية والعسكرية

وتسيطر على البحار الثلاثة الهامة : الأسود والأبيض والأحمر ، والمضايق التى تربط البحرين الأسود والأبيض ، وتبسط نفوذها على مساحات شاسعة من شرق ووسط أوربا . وكان المخططان الرئيسيان لتلك التحالفات هما النمسا والروسيا ، وقد قامت خططهما أساسا على إثارة الاضطرابات فى إقليم الصرب التابع للدولة العثمانية ، وفى ذات الوقت تحريض السكان المسيحيين فى كل من البوسنة والهرسك على عصيان السلطات العثمانية والاعتداء على المسلمين فيهما ، وبعد ذلك تتحرك الجيوش الروسية فى جبهة القرم ، بينما تتقدم الجيوش النمسوية إلى الصرب والبوسنة والهرسك ، وكان أهم هذه التحالفات فى القرن الثامن عشر الميلادى هو تحالف عام ١٧٣٧ الذى تقدمت فيه القوات النمسوية وحاصرت بلدة بانيالوقا ، ولكن القوات العثمانية تمكنت من فك الحصار وردِّ الجيش النمسوى ، كما ألحقت الهزيمة بالجيش الروسى فى القرم وأجبرت الأسطول الروسى على إحراق سفنه .

● وبعد خمسين عاما تجدد الاتفاق بين الامبراطورة الروسية كاترين الثانية والامبراطور النمسوى جوزيف الثانى بهدف إحياء الامبراطورية البيزنطية واقتسام الولايات العثمانية فى البلقان ، وقد فشل الاتفاق فى تحقيق أغراضه .

● مع بداية القرن التاسع عشر اتسع نطاق المحاولات الأوربية للقضاء على الدولة العثمانية باعتبارها سلطة الخلافة الإسلامية واقتسام ولاياتها ، وانضمت بريطانيا إلى هذه الجهود واضعةً

نُصب عينيها الاستيلاء على الممتلكات العثمانية فى الشرق الأوسط وخاصة مصر والسودان لتأمين خطوط مواصلاتها إلى الهند ، واختلطت الأهداف الاقتصادية والسياسية بالمخططات الصليبية .

وبينما نمت النزعات الاستعمارية لدى القوى الأوربية ، أخذت عوامل الوهن تدب فى أوصال الدولة العثمانية ، وقعدت عن ملاحقة التطورات فى النظم الإدارية والعسكرية ، وتبلورت العلاقات والمشكلات بين الدولة العثمانية من جانب والقوى الأوربية من جانب آخر فيما أطلق عليه « المسألة الشرقية » والتى كانت الشغل الشاغل للقوى الأوربية المختلفة وموضوع العديد من المؤتمرات لطرح الحلول التى تتفق مع أطماع الدول الأوربية التى اتفقت – رغم خلافاتها – على الإجهاز على « الرجل المريض » وهو اللقب الذى أطلقوه على الدولة العثمانية التى تزايدت سرعة هبوطها على منحنى التاريخ .

● لم تختلف الأساليب الأوربية عن المخططات التى اتبعتها فى الماضى ؛ فعمدت إلى تحريض سكان الصرب والجبل الأسود مستغلة العنصر الدينى ،كما صاحب التحريضَ على التمرد تدبيرُ المذابح ضد السكان المسلمين ، وكانت بداية الوهن العثمانى حين وافق على استقلال ذاتى للصرب فى أغسطس سنة ١٨٣١ م .

● وفى مؤتمر وانجتار بالنمسا سنة ١٨٧٥ الذى اشترك فيه رؤساء وزارات كل من ألمانيا والنمسا والروسيا ، وافق المؤتمر على

اقتراح روسى بعدم التدخل فى أية حركات تمرد فى الأقاليم العثمانية ، مستغلة عاملين : أولهما دينى مسيحى مقيمةً من نفسها حامية للكنيسة الأرثوذكسية ، والثانى قومى عنصرى باعتبارها حامية السلافيين ، وقد أرادت باقتراحها الحيلولة دن اتفاق الدولة العثمانية ، مع أىٍّ من النمسا أو ألمانيا لاحتواء أى تمرد فى أقاليمها السلافية ، ثم تقوم هى بعد ذلك منفردة بتوجيه التمرد لصالحها .

وقد نفذت الخطة الروسية، إذ تعللت عناصر مسيحية فى الهرسك بثقل عبء الضرائب وقسوة رجال الضبطية العثمانية، فأعلنت التمرد ضد السلطة العثمانية فى يونيو سنة ١٨٧٥ وقتلت بعض الجنود، وخطفت أحد رجال الإدارة ، ثم امتد التمرد إلى موستار عاصمة الهرسك ، وتدفقت الأسلحة والمعونات من الخارج على المتمردين .

ولم يقتصر الأمر على الهرسك ، بل بدأ المسيحيون فى البوسنة نفسها تمرداً آخر فى أغسطس من نفس العام ، وقد أعلنت الصرب والجبل الأسود حيادَهما رسمياً بينما عملتا على إمداد المتمردين المسيحيين بكافة المساعدات وتنظيم وصول المتطوعين والإمدادات العسكرية لهم من كافة أنحاء أوربا . وامتد التمرد إلى الحدود مع النمسا ، وتدهورت الأوضاع ، فأثار ذلك التنافسَ الأوربى ، وأخذت كل دولة تخطط لتحقيق هدفها ؛ فعملت النمسا على ضم البوسنة والهرسك ، بينما سعت الروسيا إلى تكريس حمايتها للقومية السلافية ، وأخذت الدول الأخرى تبحث لها عن دور : فاقترحت فرنسا تشكيل وفد من قناصل

الدول الأوربية لبحث المشكلة مع الدولة العثمانية ، وهنا بدأ التدخل الأوربى الجماعى إلى جانب التدخلات والأطماع الفردية الخاصة بكل دولة . وقد طالبت الدول الأوربية أن تقوم الدولة العثمانية بإصلاحات فى البوسنة والهرسك ، وأن تعرض عليها برنامج هذه الإصلاحات ، بل وقدمت الأسس التى ترى أن تقوم عليها الإصلاحات . ورغم قبول الدولة العثمانية لذلك إلا أن المتمردين المسيحيين تشجعوا بالتدخل الأوربى وبالغوا فى مطالبهم، ومن بينها سحب الجنود العثمانيين من البوسنة والهرسك ، وضمان الدول الأوربية للإصلاحات المطلوبة .

وانتهزت كل من الصرب والجبل الأسود الفرصة فأعلنتا – وهما الخاضعتان للدولة العثمانية – الحرب على هذه الدولة فى يوليو سنة ١٨٧٦ . ورغم الدعم الروسي والأوربى للجيش الصربى إلا أن القوات العثمانية حققت انتصاراً حاسماً وفتحت الطريق للتقدم إلى بلجراد ، وهنا تدخلت الروسيا بتوجيه إنذار بوقف القتال وعقد هدنة ، وقبلت الدولة العثمانية الإنذار ، وانعقد فى أواخر سنة ١٨٧٦ وأوائل ١٨٧٧ مؤتمر فى استانبول حضرته إلى جانب الدولة العثمانية كل من ألمانيا وانجلترا وإيطاليا والروسيا وإمبراطورية النمسا والمجر وفرنسا ، وكان هدف المؤتمر بحث أوضاع المسيحيين فى الدولة العثمانية. وقد رفض العثمانيون الاقتراحات الأوربية بتشكيل لجان مختلطة ، والتنازل عن أراض للصرب والجبل الأسود ، وكان السلطان عبد الحميد قد تولى الخلافة العثمانية حديثا .

ضياع البوسنة والهرسك :

بعد ما يقرب من عام ونصف اجتمعت نفس الدول في مؤتمر ببرلين في يوليو سنة ١٨٧٨ ، ورأسَ المؤتمر بسمارك مستشار ألمانيا ، وأسفر المؤتمر عن معاهدة برلين في يوليو سنة ١٨٧٨ التي نصت على استقلال كل من الصرب والجبل الأسود وبلغاريا ورومانيا عن الدولة العثمانية ، أما فيما يتعلق بالبوسنة والهرسك فقد قضت المعاهدة ببقائها تحت السيادة العثمانية على أن تتولى إمبراطورية النمسا والمجر احتلالها وإدارتها .

وهكذا بدأ انحسار الحكم العثماني الإسلامي الفعلي عن هذه الأقاليم في أوربا الشرقية التي رفرف عليها علم الإسلام ما يقارب خمسة قرون بل وأكثر في بعض نواحيها ، لم يُكرِه خلالها شعبًا على اعتناق مبادئه رغمًا عنه ، ولم يضطهد دينًا من الأديان، ولم يطارد قومية من القوميات أو عنصرًا من العناصر . وقد صمد الحكم العثماني طوال تلك الفترة لمؤامرات ودسائس أملاها التعصب الديني الأعمى والشعور القومي الحاقد والفتن العنصرية المخربة ، وكل ذلك تحت مظلة الغرور الأوربي المشوب بكراهية دفينة للشرق والإسلام .

وكما كان متوقعا باشرت الإدارة النمسوية صنوف الاضطهاد ضد المسلمين ، ونشطت محاولات التنصير ، وتعرض السكان المسلمون للتشريد والمطاردة ، بل امتد ذلك إلى من يخالف الحكام في المذهب من المسيحيين ؛ فلم يَسْلَمْ الصرب الأرثوذكس من الاضطهاد الكاثوليكي ، ولذلك نجدهم ينضمون

إلى المسلمين فى ثورتهم ضد النمسويين عام ١٩٠٠ ، وقد أسفرت سياسات القمع والاضطهاد النمسوية عن هجرة الكثير من المسلمين فرارًا بدينهم وحياتهم إلى الأناضول وغيره من الأقاليم العثمانية .

والواقع أن النص على احتلال امبراطورية النمسا والمجر للبوسنة والهرسك وإدارتهما مع بقائهما تحت السيادة العثمانية لم يكن إلا خطوة أولى لضمهما نهائيا وخضوعهما تمامًا لامبراطورية النمسا والمجر ، وهذا ما تم فعلاً فى ٥ أكتوبر سنة ١٩٠٨ حين أصدر الامبراطور فرانسوا جوزيف بيانا بإلحاق البوسنة والهرسك بالامبراطورية ، وبعد بضعة أشهر أُبرمت اتفاقية فى استانبول فى فبراير سنة ١٩٠٩ بين الدولة العثمانية وامبراطورية النمسا والمجر تعترف بهذا الإلحاق بعد أن أسقطت جماعةُ الاتحاد والترقى السلطانَ عبد الحميد عن العرش واستولت على الحكم ، وهكذا بدت أول ثمار زعزعة الخلافة العثمانية وانتصار ما أطلق عليه التيار العلمانى ، وقد ثارت احتجاجات شعبية فى استانبول ضد التفريط فى إقليمى البوسنة والهرسك ، وسرت شائعات بأن نظام الاتحاد والترقى باعهما للكفار .

● لم يستسلم مسلمو البوسنة للاضطهاد النمسوى وتعددت ثوراتهم ضده ، ونجحوا بعد أقل من شهرين من توقيع الاتفاق التركى النمسوى عام ١٩٠٩ فى أن ينالوا الحكم الذاتى فيما يتعلق بشئونهم الدينية .

ولم يكن البوسنويون وحدهم الحانقين على النمسا ، بل

شاركهم فى ذلك غلاةُ المتعصبين من القوميين الصربيين ؛ لأنهم كانوا يرون فيها عقبة تحول دون تحقيق أملهم المتمثل فى إنشاء دولة الصرب الكبرى ، وقد تتابعت مخططاتهم ضد النمسا حتى بلغت أوجها عام ١٩١٤ باغتيال ولى عهد النمسا الأمير فرانسوا فرديناند وزوجته فى سراييفو على يد طالب صربى شاب عضو فى جمعية اليد السوداء الصربية ، ولا يبعد أن يكون هدف المخططين من تنفيذ مؤامرتهم فى سراييفو هو إلصاق العملية بالبوسنويين لأنها ارتكبت فى إقليمهم، ومِن ثَمَّ استثارة الرأى العام الأوربى ضدهم وإطلاق العنان لعمليات جديدة لاضطهاد المسلمين ومحاربتهم . وقد دخلت عملية اغتيال ولى العهد النمسوى التاريخ من أوسع أبوابه وطالت آثارُها العالمَ كله ؛ إذ أنها كانت الشرارة المباشرة لإشعال نيران الحرب العالمية الأولى .

● بعد انتهاء هذه الحرب المدمرة عام ١٩١٨ قامت فى نفس العام المملكة الصربية الكرواتية السلوفانية ، وتولى عرشها الملك الصربى بطرس الأول ، وضمت المملكة ضمن أقاليمها إقليم البوسنة والهرسك ، ولكنه كان مقسماً بين ولايتى الصرب وكرواتيا دون أن يكون له كيان مستقل .

وفى عام ١٩٢١ تولى العرش الملك ألكسندر الأول ، وفى عهده تغير اسم المملكة إذ أطلق عليها سنة ١٩٢٩ اسم يوغسلافيا . ثم اغتيل ألكسندر الأول عام ١٩٣٤ وخلفه على العرش بطرس الثانى ، الذى كان صبيا ، فتم وضعه تحت الوصاية ، وساعدت هذه الظروف على دعم نفوذ الكنيسة فأصبحت هى

الموجهة لأمور الدولة والمهيمنة على شئونها ، وبذلك ازداد الضغط على المسلمين وتوالت محاولات يوغسلافيا للتخلص من المسلمين فيها بشتى الوسائل ، فعقدت معاهدة مع تركيا لتهجيرهم إليها مقابل تعويضات مالية ، ولكن المسلمين تشبثوا بأرضهم وأصروا على البقاء فيها رافضين تركها ، فحال ذلك دون تنفيذ المعاهدة ٠ ومع ذلك لم تتوقف جهود الحكومة اليوغسلافية عن السعى من أجل تحقيق هدفها الدائم المتمثل فى التخلص من المسلمين ، فوضعت عام ١٩٣٩ خطة لتهجير أربعين ألف عائلة مسلمة خلال خمس سنوات من١٩٣٩إلى ١٩٤٣ ، ولكن نشوب الحرب العالمية الثانية فى نفس العام١٩٣٩حال دون تحقيق مخططاتها ٠ورغم هذا فقد كانت سنوات الحرب قاسية على المسلمين ؛ إذ تعرضوا لمذابح من جانب كل من الأرثوذكس والكاثوليك ٠

● وحتى حين انتهت الحرب العالمية الثانية لم ينعم المسلمون بالهدوء والطمأنينة ؛ إذ سيطر الحزب الشيوعى بزعامة تيتو على مقاليد الأمور فى يوغسلافيا ، ولقى المسلمون الكثير من العنت والاضطهاد ، وضيَّق عليهم الحزب الشيوعى الخناق ، وأمر تيتو بهدم معظم المساجد أو إغلاقها ٠

ولكن الأمور بدأت فى التحسن منذ أوائل السبعينيات بعد معاناة استمرت طوال ربع قرن؛ فقررت الحكومة اليوغسلافية عام ١٩٧٢ أن تعيد للمسلمين بعض المساجد والمدارس الخاصة بهم ، كما أخذ المسلمون فى بناء بعض المساجد الجديدة على نفقتهم وبجهودهم الذاتية ، وفى العام التالى ١٩٧٣ نجح المسلمون فى الحصول على اعتراف من الحكومة اليوغسلافية باعتبار البوسنة

والهرسك ولايةً قائمة بذاتها ، وأتبع ذلك الاعتراف بالمسلمين كقومية خاصة ٠

وكان للمسلمين فى يوغوسلافيا اتحاد إسلامى عام يرأسه رئيس العلماء ، كما كانت لهم مجالس إسلامية فى أربع من جمهوريات يوغوسلافيا الاتحادية وهى: البوسنة والهرسك، والجبل الأسود ، ومقدونيا ، وقوصوه ٠

ورغم أن الحزب الشيوعى اليوغسلافى كان حريصاعلى اتباع سياسة مستقلة عن الحزب الشيوعى السوفيتى منذ خلاف تيتو مع ستالين فى أواخر الأربعينيات ، فقد تأثر الاتحاد اليوغوسلافى بانهيار الاتحاد السوفيتى وسقوط الشيوعية كأيديولوجية ، وما نجم عن ذلك من انتهاء الحرب الباردة مما أسفر عن زعزعة النظام الشيوعى فى يوغوسلافيا ثم انهيار الاتحاد الفيديرالى الذى تكرّس بإعلان كل من سلوفانيا وكرواتيا الاستقلال فى يونيو سنة ١٩٩١ ٠ وحين رغبت البوسنة والهرسك أن تسير على ذات النهج قامت قيامة أوربا ولم تقعد !! وأثيرت التخوفات من قيام دولة إسلامية فى أوربا ، وانطلقت كوامن الحقد والكراهية من عقالها وارتُكِبَت الفظائع والمذابح والانتهاكات التى يَنْدَى لها جبين الإنسانية مدى الدهر مما تابعته وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية فى مختلف أنحاء العالم وكانت التدخلات المختلفة أوربيةً وأطلنطيةً وأمريكية وأممية ، واللهُ غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ٠

المؤلف : الأمير محمد على باشا :

ابن الخديوى توفيق، وأخو الخديوى عباس حلمى الثانى، وحفيد الخديوى اسماعيل، ولد بالقاهرة عام ١٨٧٥ وبدأ دراسته بها، ثم أكملها فى كل من سويسرا بمدرسة لانسى بجنيف، والنمسا بمدرسة التريزيانوم الملكية ومعهد مارى تريز بفينا، وأثناء دراسته بالخارج كان بصحبة وفد مصرى للإشراف على الدراسة ومواصلة تعليمه اللغة العربية . أجاد الكثير من اللغات الأجنبية وهى التركية والفرنسية والانجليزية والألمانية . قام وهو طالب بزيارة كثير من الدول الأوربية؛ فزار فرنسا وانجلترا والروسيا والمجر بالإضافة إلى كل من سويسرا والنمسا وتركيا .

– ناب مع أخيه عباس حلمى عن أبيهما الخديوى توفيق فى افتتاح معرض باريس عام ١٨٨٩ الذى شاركت فيه مصر . وفى عام ١٩٠١ مثَّل الأمير محمد على أخاه الخديوى عباس حلمى الثانى فى تشييع جنازة الملكة فيكتوريا .

– أحب الأمير محمد على السياحة فقام برحلات عديدة إلى مختلف أنحاء العالم، وحرص فى كل رحلة على تدوين ملاحظاته ومشاهداته، فزار أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية واليابان وبلاد الشام والبلاد المغربية فى شمال أفريقيا، وكان ينشر هذه المشاهدات والانطباعات فى كتب ومن بينها الكتاب الذى بين أيدينا عن رحلة الصيف إلى البوسنة والهرسك التى قام بها عام ١٩٠٠ وهو فى شرخ الشباب ، لم يزد عمره آنذاك عن خمسة وعشرين عاما .

– وقد تولى الأمير محمد على ولاية العهد مرتين: أولاهما حين تولى أخوه الأكبر عباس حلمى الثانى الخديوية إثر وفاة والدهما الخديوى توفيق سنة ١٨٩٢ ، ولكن حالَ دون توليه الحكم أن أخاه تَمَّ عزله من قِبل الانجليز فى ديسمبر سنة ١٩١٤ بعد نشوب الحرب العالمية الأولى وإعلان الحماية على مصر وتحويلها إلى سلطنة اختاروا لها السلطان حسين كامل عمه، الذى خلفه بعد وفاته سنة ١٩١٧ أخوه السلطان أحمد فؤاد الذى أصبح ملكا سنة ١٩٢٢ . أما المرة الثانية فكانت فى عهد الملك فاروق ، قبل أن يرزق بابنه أحمد فؤاد الثانى ، فلما ولد هذا الأخير تحولت ولاية العهد إليه .

– وحين توفى الملك فؤاد سنة ١٩٣٦ وخلفه الملك فاروق على العرش قبل أن يبلغ سن الرشد تولى الأمير محمد على رئاسة مجلس الوصاية حتى عام ١٩٣٧ حين بلوغ فاروق هذه السن وفقًا للتقويم الهجرى . ويتردد أن الأمير محمد على حاول رفع سن الرشد من ثمانية عشرة عاما إلى واحد وعشرين ولكنه لم ينجح فى ذلك .

– كانت للأمير هوايات متعددة ، ففضلاً عن السياحة والأسفار؛ كانت له اهتمامات بتربية الخيول وبالنباتات النادرة التى أشبع هوايته فى مجالها فى حديقة قصره بالروضة ،كما كان يهوى جمع الأسلحة القديمة من سيوف وخناجر وبنادق ومسدسات .

– كان– رحمه الله – مغرما بالفن الإسلامى؛ فبنى قصره

بالروضة على الطراز المعمارى العربى الإسلامى، وزين جدرانه بآيات القرآن الكريم وراعى فى زخارف سقوفه وفى أثاثه الطراز الإسلامى.

– كان رئيسا لجمعية الهلال الأحمر ، وكانت عواطفه تجاه الشعوب الإسلامية ظاهرة، وقد بدت جلية فى جهوده من أجل جمع التبرعات أثناء الغزو الإيطالى لليبيا وكذلك أثناء الحرب التركية فى البلقان ،وساهم فى إغاثة منكوبى هاتين الحربين .

– وكان أيضا عضوا فى المحفل الماسونى ، ويبدو أنه فى تلك الفترة لم تكن الشبهات الدائرة حول الماسونية ظاهرة مما دفع الكثيرين إلى الانضمام إليها دون الارتياب فى أهدافها .

– من ناحية أخرى كان له نشاطه الاجتماعى وأسس نادى محمد على لأمراء الأسرة المالكة وكبار الأثرياء من المصريين والأجانب، ثم آل النادى بعد ثورة سنة ١٩٥٢ إلى وزارة الخارجية وأصبح النادى الدبلوماسى .

– لم يكن نشاطه السياسى ظاهراً أو مكثفا ، وإن تحدث البعض عن محاولات له للتعاون مع الوفد فى مقابل تعديل نظام وراثة العرش ، ولكن لم تلق هذه المحاولات قبولا من جانب الوفد.

– لم تتسم علاقاته بالانجليز بمعاداة ظاهرة أو موالاة تامة ، ولم تُعرف عنه مواقف وطنية متطرفة ولا محاربة سافرة للحركات القومية أو الإصلاحية .

– حين قامت ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ بقى بمصر بعض الوقت، وقد اختارت الثورة الأمير محمد عبد المنعم وصيا على

العرش حين خلف الأميرُ أحمد فؤاد الثانى أباه فاروقا بعد تنازله عن العرش،ولم تعين الأمير محمد على، ثم رحل الأمير إلى سويسرا وأقام بلوزان إلى أن توفى بها سنة ١٩٥٥ ودفن جثمانه بالقاهرة ،

أسلوب المؤلف ونهجه فى كتابه :

يندرج الكتاب فى أدب الرحلات الذى كان للمسلمين فيه باع طويل كانت من ثماره كتب لا زالت رغم طول العهد علاماتٍ شامخة ضمت المتعة والمعلومة فى آنٍ معًا ،

وقد يثور تساؤل عما إذا كان الأمير قد كتب الكتاب بنفسه أم استكتب غيره ؟ وأيًا ما كان الأمر فلا شك أن جوهر الكتاب ولبّه من نتاج الأمير، ويدل على أن له عينًا بصيرة لَمّاحة دقيقة الملاحظة تهتم بكل ما يقع نظرها عليه وتتفحصه وتحاول أن تستوعبه وتحيط بتفصيلاته (راجع ملاحظاته حول الطريق الزراعى، وحديثه عن الخيول التى يستخدمها أهل البوسنة والمقارنة بينها وبين خيول اليونان والعرب) كما يهتم بمظهر الناس وأوصافهم وملابسهم وعاداتهم ومأكولاتهم بل وأسلوب تصفيف شعرهم ،ويهتم أيضا بأوضاع النساء والأطفال ،

وهو أيضا يمعن النظر فى الأرض ونوع تربتها ومدى خصوبتها وإنتاجها وكيفية التعامل مع محاصيلها والعناية بحيواناتها ، وتتسع ملاحظاته لتشمل المساكن وأسلوب بنائها ومدى نظافتها وحسن اختيار مواقعها ،

أما أسلوبه فيتفاوت تفاوتا كبيرا؛ فحينًا يسمو إلى مستوى

رفيعٍ يضَمِّنه بعضَ الآيات القرآنية والأمثال والحكمة والشعر ، وحيناً يهبط إلى مرتبة دنيا يستخدم فيها الكلمات العامية مثل وابور – شوربة – بوية – ترابيزة – فوطة – حنفية ٠٠٠ الخ أو كلمات تركية وأجنبية مثل جاكتة – قشلاق – شماشرجى – تراموای – فوتوغرافى ٠٠٠ الخ ٠

ومع كثرة استخدامه للآيات القرآنية وتضمينه عباراتها فى أسلوبه، فإنه كان أحيانًا يورد التعبير القرآنى فى غير موضعه ويأتى به فى سياق بعيد عن معناه الحقيقى ، ولعل أوضح مثال لذلك ما ذكره أن « ضيف اللوكاندة ليس بين الجوارى الكُنَّس » يقصد الجوارى الحسان، بينما التعبير جاء فى سورة التكوير مشيرا إلى النجوم المستترة بالنهار ٠

وما أشرنا إليه من تفاوت أسلوبه بين السمو والهبوط لا يقلِّل من قَدْره ولا يحطُّ من قيمته ؛ اذ يبدو أن هذه الرحلة من أوائل ما دوَّنه من رحلاته وأن هذه التجربة كانت من بواكير تجاربه فى هذا المجال ، فضلاً عن أن أيًّا من نشأته وتعليمه لم تتح له الفرصة للتعمق فى دراسة اللغة العربية والبراعة فى الكتابة بها ، وهو يقر صراحة بكل ذلك فيذكر فى صفحة ٩٣ أنه لم يتدرب على مثل هذا العمل أى كتابة انطباعاته عن الرحلة، ثم يقرر فى صفحة ٩٤ أنه يكلف نفسه الكتابة بلغة لا يلم بها تمام الإلمام ٠

ولا شك أنه مما يُحسب للأمير محمد على أن رحلاته لم تكن سياحةَ لهوٍ وعبث، رغم أنه حين قام بهذه الرحلة إلى بلاد البوسنة والهرسك كان فى ميعة الصبا وشرخ الشباب وأنه عاش

حياة الترف والبذخ ونشأ فى رحاب القصور، وعقد الصداقات مع الأمراء وأفراد العائلات المالكة فى مختلف الممالك والبلاد أو مع أبناء الأغنياء والأثرياء الذين ينفقون أموالهم عادة على المُتَع والملذات حلالاً كانت أم حراما ، ولعل مقارنةً سريعة - إن كان ثمة مجال للمقارنة - بين سلوكه وتصرفاته وسلوك وتصرفات العديد من أثرياء اليوم - أمراء وغير أمراء - تجعل كفته أكثر رجحانا، وتُظهر أنه كان يحس بمسئوليته كأمير، ويستشعر هَوِيَّته كمسلم، ويعتز بكيانه كمصرى ،

وفى كل ثنايا الكتاب نَلْحَظُ حِسًّا إسلاميا يملك عليه مشاعره ويتغلغل فى وجدانه؛ فيتملكه الأسى على ما ضاع من أقاليم إسلامية اقتُطعت من سلطان الخلافة وضُمَّت إلى سلطان الأوربيين فأذاقوا المسلمين من سكانها صنوف المهانة والاضطهاد وضيَّقوا عليهم فى ممارسة شعائرهم وإظهار معتقداتهم ، كما يُظهِر كدره وانقباض صدره حين يصف له صديقه باكر بك ما يعانيه المسلمون ،

وإلى جانب هذا الشعور الإسلامى الفياض، نلمح وَعْيًا قوميا يكشف عن حب صادق لمصر واهتمامٍ بالغ بشئونها وغَيْرَةٍ عليها وحماس لها ،

غرة المحرم ١٤١٨ هـ
مايو ١٩٩٧ م

السفير أحمدين بهى الدين خليل

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

سبحانك اللهمَّ أبدعتَ هذا العالم على أجمل صنع وأكمل نظام ، وأودعتَ مَشاهده من سر وجودك ما عرفك به جميعُ الأنام؛ فما من شيء إلا يسبِّح بحمدك وينزِّهك عن موارد الخيالات ومخاطر الأوهام ، وجعلتَ فى كل جوهر وعَرَض مِن بارع المبتدَع ورائع المخترَع ما لا يُحْصَى من الآيات على وجوب وحدتك (١) ، وما لا يُسْتَقْصَى من البرهانات على تخصيص التأثير بقدرتك ؛ فلك الحمد ، ومنك التوفيق إليه ، ولك الشكر وبك الاستعانة عليه ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى ناضد (٢) للحق وجاهر ، وجاهد فى الله وهاجر ، وأوضح الطريق القويم ، وهَدَى الصراط المستقيم ، وعلى آله وصحابته ، ومَن دَرَجَ على طريقه وسُنَّته .

(وبعد) فكثيراً ما ارتحلتُ إلى البلاد الأوربية وجُبْتُ

---

(١) الأصح فى صفة الله سبحانه لفظ الوحدانية وليس الوحدة .

(٢) ناضد : كافح .

أقطارها، وزُرتُ عواصمها وشارفتُ مدائنها ، حتى أدركنى السأم من معاودتها ، والمللُ من الترداد عليها ، والاختلاف إليها ، ولـمّا لم يكن لى بُدٌّ من السياحة لترويح النفس وتبديل الهواء واستطلاع ما تحويه جوانح البلدان من مجالى (١) الطبيعة ومناظرها ، ومجانيها(٢) البديعة ومخابرها ، والوقوف على أخلاق الناس المتباينى العناصر والعوائد ، والمتفاوتى المشارب والعقائد ، وكنتُ أجد من نفسى جنوحًا عظيمًا وميلاً أكيداً إلى زيارة الأقطار الشرقية ، فرأيتُ أن أُتمِّمَ رحلتى فى عام ١٩٠٠ بما يبلغ بعض ذلك المأرب ، ويحقق إن شاء اللهُ من تلك الأمنية .

ولقد كان وصلَ إلىّ مِنْ قَبل أنَّ بلاد البوسنة والهرسك قد أصابها قسط من الحضارة العصرية ، وأنْ قد أنشئت فيها السكك الحديدية ، وأقيمت فى مدائنها الفنادق والمطاعم وغير ذلك مما يجد المسافر معه وسائل الراحة ووسائط الرفاغة (٣) ما ربما لم يجده فى كثير من البلاد الشرقية ، بَيْد أنها مع ذلك لا تزال ناقصةً أموراً كثيرة مما نشاهده فى بلادنا وفى غيرها ؛ فإنَّ مَن قصد إلى الموازنة بين فنادق تلك البلاد وغيرها من المدن المتحضرة تجلَّى له الفرق محسوسًا سواء كان فى ضخامة البناء أو وَثارة (٤) الأثاث أو وفرة المعدات ، أو غضارة (٥) المشاهد ، ونضارة المناظر والمعاهد ، كما

---

(١) المجالى فى الأصل هى مواضع الصلع فى الرأس ، والمراد هنا الأراضى المنبسطة الظاهرة .

(٢) أرض الكلأ والثمار .   (٣) سعة العيش .

(٤) وثارة الأثاث : نعومته .   (٥) غضارة المشاهد : حسنها وبهاؤها .

أنه لو عمد عامد إلى المقايسة بين الخطوط الحديدية فى تلك الأصقاع وبينها فى مصر مثلاً ، لوجد أنها لم تبلغ فى تلك ما بلغته فى هذه من تمام الاستعداد وكمال النظام ؛ إذ ينقصها ما هو فى السكك الحديدية اليوم أشبه شيء بالضروريات؛ كالعربات الخصيصة بالنوم والمعدّة للأكل ، وقد نجد مثل هذا الفرق فى المطعومات أيضًا ، وإذا كان ذلك فى أهم ما يُعتنَى بشأنه عادةً ، فلأنْ يكون فى غيره أولَى .

ولكنى بالرغم عن كل ما ذُكر ، بل وعن كل ما عساه أن يعترضنى من المتاعب وَيعرونى [١] مِنَ المَشاق ، كنتُ أشعر دائمًا بزيادة الميل ومضاعفة الرغبة إلى ما أزمعتُ الرحلة إليه من تلك البلاد ، حتى أنْ صادف أنى كنتُ وجناب السير (رنل رود) نائب جناب (اللورد كرومر) المندوب البريطانى فى مصر على ظهر اليخت (اسبرن) وتجاذبنا أطراف الحديث فيما يختص برحلتى إلى تلك البلاد (بلاد البوسنة والهرسك) وكاشفتُه بميلى إلى ذلك ، فما هو إلا أن شرح لى من محاسن هذا السفر وفوائده ما استخلف الميلَ بالعزم ، واستبدل الترددَ باليقين والجزم ، وقد زاد ذلك تعضيداً [٢] أنى كنت كلما تحدثتُ مع أحد فى هذا الشأن أجده مرتاحًا إليه ، باعثًا بالمشورة عليه ، وإنما قصدتُ أولاً إلى بلاد البوسنة والهرسك دون غيرها من سائر البلاد الشرقية لأجدَ منها عونًا على اجتياز البلاد الأخرى التى هى أدنى منها حضارةً وأقل

---

(١) يعرونى : يلم بى .

(٢) تعضيداً : تقوية .

مدنيةً،بل وأقشَف منها إهابًا(١)وأخشن جلبابًا. ولكى تكون أولَ سُلَّمٍ أتدرَّج به إلى ما قصدتُ له واعتزمت عليه.

هذا ومما أذكره مقرونًا بالأسف أنى كنت قبل هذه العزيمة كلفًا (٢) بزيارة بلاد المغرب من نحو الجزائر وتونس وأسبانيا ، وخَصوصًا أن الموسيو (كوجردان) الذى كان معتمداً سياسيًا لفرانسا فى مصر قد كان طلب إلىَّ أن أتطوف بهاتيك الجهات ، وأراد أن يكون ذلك بصفة رسمية، حيث التمس ذلك من حكومته التى أجابته إلى طلبته ، غير أنه عرض لى إذ ذاك من الموانع ما استدعى تأجيل هذه السياحة إلى فرصة أخرى إن شاء الله . وأذكر من تلك الموانع أن الرعايا المسلمين فى تلك البلاد كانوا وقتئذٍ مهتاجين (٣) على حكومتهم ، ولو أنى وُجدْتُ فيما بينهم وهم يعرفون أنى أمير مسلم وشقيق الجناب العالى الخديوى ، لكان يُخشى أن تدبَّ حَمِيَّةُ البداوة فى أعراقهم ، وتثور ثائرةُ نفوسهم ، ولا سيما أن العوائد الشرقية حاكمةٌ على الشرقيين بما عساه يخالف العوائد الغربية مِن نحو وجوب الرعاية عند اللياذ (٤) والحماية وقت العياذ (٥) .

* * *

---

(١) أقشف إهابًا : أقل تنعمًا .

(٢) كلفًا : مولعًا . (٣) مهتاجين : ثائرين .

(٤) اللياذ : الاستغاثة . (٥) العياذ : الملجأ .

الشروع فى السفر إلى بلاد البوسنة والهرسك

لما أن قضيتُ سياحتى فى أوربا عام ١٩٠٠ وانثنيت [١] من باريس معرِّجا على (ويانا) [٢] عاصمة بلاد النمسا ، شرعتُ هناك فى رسم خطة أسير على مقتضاها ؛ فعنَّ لى أولاً أن أجعل مبدأ سيرى إلى بلاد البوسنة والهرسك من « ويانا » إلى « بودابست » عاصمة بلاد المجر ، ثم منها إلى « بنيالوقا » ، ومنها إلى « ياسى » فإلى « طراونيق » ، ومنها إلى « سراجيفو » عاصمة بلدان البوسنة ، ثم أستأنف منها السفر إلى « مسطار » عاصمة الهرسك ، ثم منها إلى « منكوويتش » ، ومنها عن طريق البحر إلى « قطارو » كَيْما أُشرف على مرائى الطبيعة البيضاء فى بلاد الجبل الأسود وعلى الخصوص عاصمتها « ستينيا » لعلى أنفح الروحَ بنفثةٍ من نورها البليل ،[٣] وأتنسم جوَّها الصاحى ونسيمها العليل ، ولكن مع الأسف لم يسمح لى الدهر من الوقت بأكثر مما يَسَعُ زيارتى لبلاد البوسنة وتجوُّلى فى أطرافها ووقوفى بطرائفها ، وإرسال النظرات إلى مجالى الطبيعة تتغادى [٤] بين الأنجاد [٥] والأغوار[٦] ، وتتهادى بين الأغصان والأزهار ، من أجل ذلك أضربتُ عن السير على هذه الخريطة ، وتغانيت بالسياحة فى بلاد البوسنة؛ إذ كان مبدأُ سيرى إليها من « ويانا » إلى « بودابست » ،

---

(١) انثنيتُ : رجعت ،　　(٢) ويانا : فينا ،

(٣) البليل : النَّدِيّ　　(٤) تتغادى : تتنقل ،

(٥) الأنجاد : ما ارتفع من الأرض ،　　(٦) الأغوار : المنخفضات ،

ومنهـا إلى « زابتكا » ، فمنها إلى « بوسنة برود » ، ومنها إلى « سراجيفوا » ، فإلى « طراونيق » ، فإلى « ياسى » ، ومنها إلى « بنيالوقا » .

مبارحة فينا إلى بلاد البوسنة

في صباح اليوم الثامن من شهر سبتمبر عام ١٩٠٠ عزمنا بحول الله ومعونته على مغادرة فينا قاصدين إلى بلاد البوسنة والهرسك التى كانت يومئذ مَحَطَّ رحالنا ومَرْمَى آمالنا . وإذ ذاك ما كان أجدر فندق (امبريال) الذى أكرم منزلنا وأجْمَلَ مثوانا[٢] بنظرات وتأملات يصحبها الأسفُ على مفارقة مناخه الجميل . وكان فى انتظارنا بالباب مركبةٌ ، وهى وإن كانت من مركبات الكراء[٣] غير أنها لا تقل فى حسن المنظر وجمال الزخرف عن غيرها من العربات الخصوصية . وما كدنا نمتطى متنها الوثير حتى أخذت تنهب بنا الأرض نهبا . وعجيبٌ أن تسير مثل هذا السير الحثيث على بلاط (ويانا) الذى عفَتْ آثاره[٤] فأصبح من تقادم العهد عليه عِوَجًا وأَمْتًا[٥] ! وما زالت كذلك تنتهب طرقات العاصمة وشوارعها حتى إذا لم يبق بيننا وبين (المحطة) إلا قيد عشرة أمتار رأينا الحوذى قد أبطأ فى السير وقلَّل من السرعة ، ولا نعرف لذلك سببًا اللهمّ إلا أنَّ ميدان (المحطة) الفسيح كان مزدحمًا بجماهير الناس وغاصًّا بجماعات المسافرين . وقد قضى

---

(١) الأغوار : الوديان .
(٢) مثوانا : إقامتنا .
(٣) مركبات الكراء : عربات الأجرة .
(٤) عفت آثاره : زالت معالمه .
(٥) عوجًا وأمتا : التفاوت فى الارتفاع والانخفاض .

حُسنُ نظام الحكومة أن تحفظ مع هذا التزاحم راحة المسافرين مما عساه يحدث لهم لو تَركت العربات وسرعتها وخَلَّتِ الحوذيين وشأنهم ، وعند ذلك تقاضى الحوذى منا أجره وهو اثنان ونصف من الفولورينات ، فأخذه وعلائمُ البِشْرِ تلوح على جبينه ، وأذكر أننا قطعنا ما بين الفندق (والمحطة) فى مدة لا تربو عن العشر دقائق بفضل السرعة التى ذكرناها آنفا ، ولما أن دخلنا المحطة وهى محطة الحكومة المسماة « استتابنهوف » التى منها يؤخذ الطريق إلى بلاد المجر ، التفتُّ فلمحتُ ترجمانَ الفندق الذى كان قد سبقنا مع الحاشية إليها ، وهنا أذكر ما فات القارئ مِن تعرُّف مَن كان معى فى تلك الرحلة وهم صاحبى العزيز محسن بك راسم ، وثلاثة من المَهَنة وهم : محمد جعفر الشماشرجى ، والخيَّال المشهور « دولت » الجركسى ، ومحمد أغا الكروجى ، وتخيرنا هذا الأخير لأن أصله من الجبل الأسود وله إلمام بلغة السلاف ليكون ترجمانًا لنا فيما نحتاج إليه مما تتعاصَى [1] معرفته علينا من لغة القوم .

قطار السكة الحديد

وحينما وافت الساعة الثامنة والدقيقة الخمسون كان قطار الاكسبريس الذى يمرّ فى طريقه ببودابست متجهًا إلي بلاد البوسنة متأهبًا للمسير، متهيئًا للرحيل ، وكنا أرسلنا ترجمان الفندق من قبل ليحجز لنا محلاً من المحال الخصيصة فى عربات ذلك القطار بما

---

(١) يتعاصى : يصعب .

لا يزيد عن ثلاثة أنفس ، ولكنه جاء بعدُ آسفا وأخبرنا بأنها قد ضاقت على الراكبين بما رَحُبَتْ ، وأن ليس لنا مجال فيها ولا نصيب منها ، أما حاشيتنا فإنها سكنت إلى الدرجة الثانية ، وأما أنا وصاحِبَيَّ فما لبثنا نفكر كيف نصنع – ولا مناص من السفر – حتى هُدينا إلى أن نحبو القومسارى بشىء من النقود هو فى مجارى عاداتهم أشبه بالضروريات ، وما هو إلا أن نزعتْ بالرجل همَّتُه وخفَّتْ به حلاوة العطية فرادنا (١) إلى حجرة تسع ستة أنفس بدلاً من ذوات الثلاثة ، فاستخلَفْنا والحمدُ لله الفضةَ بالنَّضار (٢) ، واستبدلنا الدرهَم بالدينار ، ولم يزل بنا حتى أغلق بابها لكيلا يشاركنا فيها غيرنا ، فسرَّنا منه ذلك كثيراً ، وزادنا سروراً ما نمى إلينا مِنْ أنّا سنلازم تلك الحظيرة حتى حدود البوسنة، مع أن العادة فى هذا السفر قد جرت بتنقل الركاب ثلاث مرات فى غضون المسافة ، على أنّا لم نَكُ لنطمئن على مجالسنا تمام الاطمئنان خشيةَ أن يدفع الزحام ببعض المسافرين إلى مساهمتنا فى تلك الحجرة الرحبة بالرغم عن رقابة القومسارى لنا واحتفاظه بنا وحرصه على أنْ لا يصل إلينا ما نكره ، وأن لا نرى إلا ما نحب، ولقد كان أنَّ بعض الناس جاء إلينا وحاول أن يزجَّ بنفسه بيننا ،ولكن ما نشب (٣) يحاول أن رأى له متسعاً فيما زِيدَ أخيراً على عربات القطار ؛ إذ اتفق من حسن الصدفة أنَّ ناظر (المحطة) قد اضطر بسبب وفرة الركاب إلى أن يضم إليها ما

---

(١) رادنا : قادنا ،   (٢) النضار : الذهب الخالص ،

(٣) ما نشب : ما لبث ،

فيه الكفاية لركاب الدرجة الأولى ، وتلك لعَمْر الله عنايةٌ عظمى ما كان أحوج جماعة المسافرين فى راحتهم إليها . وقد استغرق هذا العمل من الزمن ما أفضى (١) إلى تأخير القطار عن ميعاده المعتاد نحو أربع وأربعين دقيقة .

والذى كان يشارف (٢) عربات الدرجة الثانية ، والقطار مندفع بقوة البخار ، يرى النمساويين الذين جرت عادة أغلبهم بأن لا يتفوّقوا (٣) إلا هذه الدرجة يتغادون فى سراديبها ويتراوحون فى دهاليزها . وما فتىء ابنُ البخار (٤) يشق بنا أحشاء القفار حتى وصلنا إلى حدود بلاد المجر فى زمن غير بعيد . وهنا استودعنا فى بلاد النمسا ذلك القومسارى الذى ذكرنا عُرْفَه (٥) وبيَّنا لطفه ، وأطرفناه باثنين من الفولورينات ، وهى طريقة مقبولة فى عرفهم قلَّما تجد واحداً منهم يأباها . فانبعثت فيه روح نشاط جديدة كان منها أن ختم خدمته وتوّج جميله بوصاية رصيفه(٦) المجرىّ الذى خلفه عند ملتقى الحدود . فلما زارنا ذلك الخَلَفُ أوَّلَ مرةٍ للتفتيش عن التذاكر قرأنا فيه عنوان بلاده واستطلعنا منه طَلْعَ معشره (٧) ؛ إذ كان ضخم الجثة أسمر اللون طويل الشارب . وكان مما يلفتنى إلى هذا الرجل أنى وجدته يلبس فى يديه قفازين

---

(١) أفضى : أدى .
(٢) يشارف : يطالع .
(٣) يتفوقوا : يستخدموا .
(٤) ابن البخار : بقصد القطار البخارى .
(٥) عرفه : معروفه .
(٦) رصيفه : زميله .
(٧) طلع معشره : هيئة قومه .

أبيضين فاستغربتُ ، وليس موضع الغرابة إلا كونه مع هذا من عمَلة [١] السكة الحديدية ! ولقد لاقانا هذا القومساري من بشاشة الوجه وطلاقة المحيًّا بما لا نرتاب معه في أننا سننال من تعهده لراحتنا ما نلنا من أخيه النمساوى ، وكان ما يتدفق فى أفئدتنا من السرور به أضعاف ما يلوح على وجهه من البِشْر بنا .

وكنتُ وصديقي محسن بك نتجاذب آونةً أطرافَ الحديث ونتوارد [٢] طرف السمر – وما ألذ التحادث فى السفر – وآونةً نلزَمُ الصمتَ ونسرح فى مسارح الخيال حتى نام صديقى ونمتُ ، وما أحوج المسافر إلى النوم والراحة ، ولكن كيف ينام مَن ليس مطمئنًا فى مقامه ولا حُرًّا فى منامه ! بل كيف يملك راحته مسافرٌ وفى القطار مثلُ رئيس المفتشين ؛ ذلك الرجل الجافى الطبع ، الغليظ القلب؟! . فإنَّا بعد أنْ أخذنا مضاجعنا باغَتنا أيَّ مباغتة وفاجأنا أى مفاجأة ؛ نعم فاجأنا بما ينبو عن الأدب وما لا يَجْمُل بالمعاملة ، وحظر علينا إقفال الباب من الداخل ، فكان ذلك سببًا فى كدر صَفْوِنا وامتعاض [٣] نفوسنا حتى وصلنا إلى (بودابست) . وقد بلغ منا التبرم به والتذمر من أخلاقه حتى إنّا لنتحَرش به تحرش الأسد بالفريسة . ولكن ما عسانا أن نصنع ولا حيلة لنا إلا امتثال ما أنبه عليه وأشار إليه ! على أنه لم يصل إليه

---

(١) عملة : عمال .
(٢) نتوارد : نتبادل .
(٣) الامتعاض : الضيق والتألم .

منا بارةُ (١) سوء ، اللهمّ إلا إذا كان التحلُّم (٢) معه وإسلاس القول(٣) له بعثَ فى نفسه رُوحَ الشر ، فركب معنا متن الغرر(٤)، وقد قيل : الحِلم يُفسد مِن أخلاق اللئيم بقدر ما يُصلح من أخلاق الكريم :

إذا أنتَ أكرمتَ الكريمَ مَلَكْتَه وإنْ أنتَ أكرمتَ اللئيمَ تمرَّدا

كأنى بالقارئ يلاحظ علىَّ تعرضى لذكر دقائق الأمور وجزئياتها ، وما أدراه أنَّ صغائر الأشياء عنواناتُ جلائلها ، والفردُ الواحد قد يكون نموذجًا لكل شعبه ، وإذا كان غرضنا أن نقف على عادات القوم وأخلاقهم فلا سبيل لالتماسها إلا من أفرادهم ولا سيما صغارهم الذين لا يحسنون المواربةَ ولا يجيدون المماراة(٥) ، فيتسنَّى للمستطلع أنْ يستجْلِيَ منهم ما يريد أن يستجليه صافيًا نقيًا لا تشوبه شائبة الغرض ، وقد قيل إن قلب الجاهل وراء لسانه ،كما أن لسان العاقل وراء قلبه .

ومما أذكره أنه لما حان وقتُ الظهر ونحن فى أثناء الطريق جاءَ إلينا الخادم المخصوص بعربة الأكل ليسألَنا عمَّا نحتاجُ إليه ، ولعلمى من العادة هنالك أن السياح يذهبون إلى الطعام على دفعتين أوفدتُ خدمى فى الدفعة الأولى التى كانت توافق الظهرَ تمامًا ، أما أنا وصاحبى فانتظرنا أمَدَ الثانية التى تكون الساعة الواحدة والربع بعد الظهر .

---

(١) بارة سوء : أقل الضرر. (٢) التحلُّم : اللطف والحلم .

(٣) إسلاس القول : لينه وسهولته. (٤) الغرر : الغرور .

(٥) المماراة : المجادلة .

في غرفة الطعام

حتى إذا ما جاء ذلك الوقت سارعنا إلى عربة الأكل ، ولم يكن فيها إذا ذاك إلا سيدة ومعها ابنتاها ، ويظهر عليهن أنهن من البيوتات الكريمة والأسر الخطيرة في بلاد المجر ؛ لما على وجوههن من مسحة الشرف وسيماء [١] الإمارة . وما كدنا نسكن إلى مجالسنا حتى وافانا الخادم الذى ظن أننا فرنساويون حينما سمعنا نتكلم باللغة الفرنساوية . فأوعزْنا إليه أن يأتينا (بشوربه) ، فأمهلنا زهاء [٢] نصف ساعة كان في غضونها يغدو ويروح بغاية السرعة لأنه على ما كان يظهر لى هو القائم وحده بحاجات المسافرين . ولذلك كان يتصبَّب عَرَقُه ويتقاطر على وجهه ، فيضطر إلى تجفيفه بغلالته ،حتى اشمأزت نفوسنا من هذا المنظر . على أن (الشوربه) التى أحضرها بَعْدُ لم تكن بالسائغة [٣] ، وقد أردفها[٤] بسمك كان كذلك غير مقبول ، فتنحينا عنهما – لا بطراً[٥] – وطلبنا خبزاً بغير إدام عسانا أن ندفع به الخلَّة [٦] ونسدَّ به الرمق . وفيما أنا أتلفَّت إذ وقع نظرى على خادم آخر وادع فى مكانه لا عمل له إلا فتح الزجاجات ، وأظنه حبسَ نَفْسَه ووقف شغلَه على هذا العمل ليفلت من عناء الخدمة التى يكابدها رصيفه .

---

(١) سيماء : أمارة . (٢) زهاء : نحو ، قرابة .
(٣) السائغة : الطيبة المذاق . (٤) أردفها : أتبعها .
(٥) بطرًا : زهوًا واستخفافًا . (٦) الخلة : الحاجة .

وبعد هنيهة لمحتُ على الكونتيسة علائم الرغبة فى أن تنفرد هى وكريمتاها إلى طاولة على حدة ، وحينذاك أوعزتُ إلى صديقى أن يدعوهنَّ إلى (ترابيزتنا) حيث نتنحَّى عنها إلى غيرها ، غير أن هذا الرأى لم يصادف عنده الذى كنت أرجوه منه ، ولم يبلغ من نفسه ما بلغَ من نفسى ، فاعتذر إلىَّ بأن حاجتنا ونحن مسافرون داعيةٌ إلى الاحتفاظ بهذه (الترابيزة) فى سفر لا يقل طولُ مسافته منذ هذه المشورة إلى منتهاه عن أربع وعشرين ساعة، وخصوصًا أنَّ مستهلَّ سياحتنا ومطلَعَ سفرنا كان كما عرف القارئ أولاً لكثرة الزحام مدعاةً إلى القلق ومَنْآة [١] عن الراحة . ويعلم اللهُ أنَّ رأى صديقى لم يكن ليثنيَ رأيى ولا ليفلَّ غرارَ [٢] رغبتى، وخصوصًا بعد ما رأيتُ من حُسْن شيَمها [٣] وجميل صنيعها ، فإنى لما طلبتُ إلى الخادم خبزًا فى المرة الثانية لمحتُ واحدةً من ابنتيها تشير إلى والدتها ، ولا يعلم إلا الله حينذاك ما كانت تقصد إليه ، ولكنَّا ما لبثنا أن أهدت إلينا الكونتيسة سلةً فيها خبز ، فعرفنا مغزى إشارة تلك الفتاة الرؤوفة إلى والدتها الشفيقة العطوفة ، وكانت تلك الهدية المقبولة والمنحة المبرورة أدْعَى إلى خجلى وأبلغ فى أسَفِى ، وتمنيتُ لو أنى كنت البادئَ بالمعروف .

وقف القطار على محطة (بست) ، فنزل إليها قصّادُها من الركاب ، وخلفَ من بعدهم خَلْفٌ من المسافرين الذين كانوا

---

(١) منآة : بعيداً .   (٢) غرار : الغرار هو حد السيف .

(٣) شيمها : أخلاقها .

وقوفًا على رصيف (المحطة) ينتظرون هذا القطار ، فخشينا لكثرتهم أنْ يضيقَ القطارُ بهم ، فيضطر بعضهم إلى مزاحمتنا فى محلنا ، فنقع هنا فيما كنا نتوقاه هنالك، وقد قام من هذه (المحطة) قبل قيام قطرنا اثنان آخران أحدهما اكسبريس الشرق الذى يكون مبدأُ سيره من باريس ويمر على ذلك البلد متجهًا إلى اسلامبول ، والثانى يبتدئ منها قاصداً إلى « بوخارست » .

ولما نزح [١] كلٌّ من القطارين براكبَيْه التفتُّ فلم أرَ فى فناء (المحطة) غير نفر يسير ، منهم ثلاثةٌ يلبسون الطربوش على عادة الشرقيين ، فصبوتُ [٢] إلى معرفتهم ، وظهر لى أنهم من بلاد البوسنة ، وأنهم على نية الأوبة [٣] إلى أوْطانهم وقد امتطوا متن الدرجة الثانية – ولم تكن وابورات النمسا لتشتمل إلا على الدرجتين الأولى والثانية – فصادف ركوبهم حيث يركب خدمنا. وبعد قليل علم أولئك البوسناويون « البكوات » ممن كان معهم من الخدم أننا شرقيون ، ثم تدرَّج بهم التبحُّث عنا إلى أن سألوا عما إذا كنّا مسلمين أوْ لا ، فأجيبوا بأننا مسلمون . هنالك انسابَ [٤] أولئك النفر فى الخدم يؤنبونهم تأنيبًا ويبكِّتونهم [٥] تبكيتًا على تردِّيهم [٦] شعار الغربيين وتنَحِّيهم عن شارة الشرقيين . هذا ما كان بلغنى من رفيقى محسن بك

---

(١) نزح : غادر . (٢) صبوت : تطلعت .
(٣) الأوبة : العودة . (٤) انساب : تمادى .
(٥) يبكتونهم : يلومونهم . (٦) ترديهم : يقصد ارتداءهم.

الذى أرسلته لاستطلاع أمرهم ، وكنت احتطتُ لمثل ذلك من قبل، ونبَّهْتُ على خدمى بأن لا يُشعروا بنا أحدا ، ولكنى مذ سمعت من رفيقى ما جرى خشيتُ أن يكونوا نسوا ذلك التنبيه فأعلموا القومَ بحقيقتنا ، لكن والحمد لله زال ما كنت أخشاه حين علمتُ بأنهم لم يعرفوا عنا إلا أننا تجار .

وكنت ونحن فى بلاد المجر على جناح الطائر الميمون الذى كان كثيرَ الرسوّ على (المحطات) أنتهز الفرص فى اختلاس النظرات لأرى رجالَ تلك البلاد بشعرهم وأزيائهم التى تختلف - بالطبع - باختلاف جهاتهم ، كما كنت أرى ذلك فى غير هاتيك البلاد ، ولكن مع الأسف لم يقع نظرى هنالك إلا على فتيات أحداث كنَّ يتراوحنَ ويتغادين (١) فى تلك (المحطات) ليبعن المسافرين ما بأيديهنَّ من صنوف العنب والخوخ . حتى وصلنا إلى « زابتكا » ، ومن هذا البلد ينقسم القطار إلى قسمين، والمسافرون يتناولون وقتذاك طعام العشاء ، غير أنى وصديقى لم نشارفْ الخوان (٢) فى ذاك الآن (٣) بل أجَّلنا ذلك العشاء إلى وقت المغرب حاسبين أنّا نجريه فى بلدة « جالا » التى وصلناها ، وكان للحديث الفضل فى قطع المسافة إليها من غير ما نَصَب (٤) ولا لُغُوب (٥) وما وصلناها حتى عمدنا إلى فتح باب غرفتنا ، وكنا أسرع ما

(١) يتراوحن ويتغادين : يذهبن ويأتين .

(٢) لم نشارف الخوان : لم نقترب من مائدة الطعام .

(٣) الآن : الوقت .

(٤) نصب : تعب .

(٥) لغوب : مشقة .

يكون تحدُّراً (١) إلى محل الأكل فى (المحطة) ، وما كنا لِنُسرع إلا لأن القطار لا يقف ثَمَّتَ أكثر من ربع الساعة .

دخلنا إلى المطعم وإذا الشوربةُ تنتظر سائغيها(٢) والسمكُ يترقب آكليه ، وهنالك صَحْفَةُ (٣) لحم مصنوع (بالصلصة) ، ويسمى هذا عندهم (بالجولاش) صنفٌ معتنًى به فى طعومهم ، وهو أشبه شيءٍ بما يسمَّى فى عرف المصريين (بالياخنى) ، وقد وجدنا فى هذا الصنف من طيب النكهة (٤) ولذاذة الطعم ما أضربنا (٥) به عن غيره من الشوربة والسمك . بل قد بلغ منا استحسانَه أنْ ذهبنا بأنفسنا إلى محل المطبوخات وترجَّينا (٦) طاهيه أنْ يَزيدنا منه ويُكثر . ولكن مع الأسف ألجأنا الإفراطُ من طعمه إلى الإفراط فى شرب الماء الزلال ، ريثما نكسر به شرَّة (٧) الحرارة التى أثارها فى جوفنا هذا المأكول اللذيذ . ولستُ أدرى أن لذاذة هذا المطعوم ما جاءت إلا بما يضيفون إليه من التوابل الحارة كما يفعل السودان بطعامهم المشهور المسمَّى لديهم (بالويكه) .

ثم نادى منادى (المحطة) حيث أذنَ القطارُ بالمسير ، فسارعتُ لأقضى ثمنَ المأكولات الذى كنتُ أحسَبه كثيراً بالنسبة

---

(١) تحدراً : اتجاهًا . (٢) سائغيها : المتلذذين بها .

(٣) صحفة : طبق . (٤) النكهة : المذاق .

(٥) أضربنا به : استغنينا به . (٦) ترجينا : يقصد رجونا .

(٧) شرة : شدة وقوة .

إلى وفرتها ، فلم يتقاضوا إلا مبلغًا يسيرًا فى جانب ما طلبنا من الأكل الكثير ! .

القيام إلى محطة « جالا »

سار الوابور بسم الله مَجراه ، واندفع كأنه السهم يشق كبد الفضاء ، وليس له من هدف إلا بلاد البوسنة . وكنا نشرف (١) من خلال النوافذ ، ونرسل النظرات إلى أراضى تلك البلدان ، فنجدها متبسطةً مَيْثاء (٢) لا تقل فى استوائها عن أراضى الوجه البحرى فى مصر . وما كاد الليل يحلِّق بجناحيه فى السماء ، وينشر ديباجه الحالك فى ثنيات الفضاء ، حتى بدا مُحَيًّا القمر ، وكأنه ملك فخم أناف بسراة قصره (٣) وأشرف على رعيته من خلال ستره (٤) فأرسل عليهم ما شاء أن يرسل من هِبات آلقَةٍ (٥) وأيادٍ بيضاء ، وما أجمل هذه المناظر فى نفس المغترب المسافر .

ثم لم يمض على مسير القطار أكثر من ساعة حتى دانينا (٦) نهر (الدانوب) ، وإذا ذاك خارتعزيمة البخار ، ووهت (٧) قوة قوائمه فَرَقًا (٨) من منظر ذلك النهر المهول الذى لا يقلّ بُعْدُ ما بين شاطئيه عن مثلَىِ النيل عند (كوبرى) كفر الزيات . وهنا

---

(١) نشرف : نتطلع . (٢) ميثاء : لينة سهلة .

(٣) أناف بسراة قصره : حَلَّ بوسط قصره . (٤) ستره : حجابه .

(٥) آلقة : يقصد هنا وضيئة ولكن أصل معنى كلمة آلق : خادع ؛ لأنها وصف للبرق اللامع الذى لا يعقبه مطر .

(٦) دانينا : قاربنا . (٧) وهت : ضعفت .

(٨) فرقًا : خوفًا .

يذهب العجَبُ بالقارئ كل مذهب ؛ إذا قلنا له إنه ليس على ظهر ذلك النهر (كوبرى) ولا ممرّ ولا قنطرة ولا مَعْبر ، والقطار لا محالة واصل ، من الساحل إلى الساحل ، يسبح على مهل ؟ أم يجرى على عجل ؟ أم يطير في الهواء وقد يعيا به حملُه(١) ؟ ! أم يقتعد متنَ الماء (٢) وقد يَهْوِى به ثقَلُه ! ذلك ما كان يأْخذ بالألباب ويذهب بالأحلام . ولكنهم قد قالوا إذا عُرِف السبب بَطُل العجب . وليتَ شعرى لقد كانت العلة هنا أغربَ والسببُ أخفى وأعجب ؛ فلم يزل بنا القطار حتى استوينا إلى شاطىء النهر ، وما هو إلا أن وافت إليه (٣) سفينةٌ بخارية حتى حاذت مكانه ووصلت بقضبانها قضبانَه ، وإذ ذاك آوى القطار إليها واستوى بجملته عليها . ولا يستطيع واصف أن يشرح ما بلغت تلك السفينة من الطول والمتانة وغير ذلك مما يدل على تمام الحذق في الصنعة وكمال الإتقان في الإبداع بأكثر من أنها وسعتْ ذلك المسافر الطويل وحملت على عاتقها هذا العبء الثقيل دون أنْ تضيقَ ذَرْعًا بامتداده العظيم ، ولا أن تتأثر لحمل جسمه الجسيم!! وما استوى على متنها القطار حتى أخذت تمخر العباب ، وتشقُّ بحَيْزومها (٤) جوانبَ الحَباب (٥) ، فاختلط الحابل بالنابل ، واشتبه علينا المحمول بالحامل ، وسَرَتِ الجاريةُ (٦) وقد ألهب

(١) يعيا به حمله : تعجزه حمولته .

(٢) يقتعد متن الماء : يجلس على ظهره .

(٣) وافت إليه : حضرت إليه . (٤) بحيزومها : بمقدمتها .

(٥) الحباب : الطرق على وجه الماء ، أو الفقاقيع على سطحه .

(٦) الجارية : الباخرة .

أحشاءَها من النار السعير ، وإنْ أعيا قدميها من الماء الزمهرير (١) حتى إذا وصلتْ إلى الشاطىء الآخر ووقفت منه موقفها من الأول ألقت رَحْلَها ، ووضعت حِملها ، فأعملت يدُ سائق القطار مفتاحَه ، فسار الهويناء يَسُلُّ (٢) ثيابه من ثيابها . ولقد كنا من ساعة امتطى القطار متنَ الجارية بنت البخار نرسل النظرات تلو النظرات، فنستطلع في مرآةِ الماء ما كنا نقرأه فى صحيفة السماء ، فكان من فوقنا نجوم غرّاء ، ومن تحتنا كواكب زهراءُ .

وما أجمل القمر وهو بين هاتيك الكواكب كأنه القائد الحاذق تَحُفُّ به الأجناد ، يلحظ بعينيه النجلاوين كلَّ مكان ، ويرمقه شغفًا به (٣) كلُّ إنسان ، فما كان أجْلَى الطبيعة وأجملها فى مجاليها البديعة ، وما كان أحْرَى المشاهدين لكل هذه المناظر الباهرة بالاندهاش ، وأجدرَهم بالعجب والاستغراب ، ولا سيما الذين لم يجتلوها (٤) غير هذه المرّة ، فكان تعجُّبهم منها أكثر واستغرابهم لها أشدّ وأكبر ، ومنهم رفيقى الذى ما كنتُ أنظر إلى وجهه إلا قرأتُ فيه آيات الدهشة ورأيت عليه سمات الإعجاب .

* * *

---

(١) الزمهرير : الشديد البروة .

(٢) يسل : يخلع أو ينتزع برفق .

(٣) يرمقه شغفًا به : ينظر إليه مولعًا به .

(٤) يجتلوها : يتبينوها .

الوصول إلى حدود البوسنة

ولما أن وافت الساعة الحادية عشرة ونصف قبل الظهر ، وصلنا بمعونة الله إلى محطة « بوسنة برود » التى هى حدود بلاد البوسنة ، وفيها ينتقل الركاب إلى قطار آخر ولكنه يسير على خطوط ضيقة كالخطوط الزراعية فى بلادنا ، وقبل أن يحين موعد القطار الثانى ذهبتُ لأبحثَ عمَّن يتقاضى قيمةَ الفَرْق ما بين الدرجة الأولى فى القطار الذى بارحناه (١) ومضاجع النوم فى القطار الذى سنركب فيه ، فهُديتُ إلى أنَّ ذلك يكون عند العامل المخصوص بصرف التذاكر ، وعند ذلك عمدتُ إليه فألفيْتُه (٢) مشتغلاً ببعض المسافرين الذين سبقونا لمثل مأربنا (٣) ، فوقفتُ بحكم الضرورة أنتظرُ ريثما ينصرفُ هؤلاء ،

وفى غضون ذلك كنتُ أجد مستخدمى (المحطة) متردّى(٤) الثياب التركية حتى خِلْتُنى (٥) وأنا بينهم فى بلاد عثمانية أو بين معشر أتراك ! وقد لفتَ نظرى هنالك رجلٌ نافَ(٦) بطوله على المترين وعرفت أنه حَرَسِىٌّ(٧) من أنه كان يلاحظ النظام وأذكر أنه لم يقع نظرى فى تلك الجهات على رجل فى طوله ، أما

---

(١) بارحناه : غادرناه ، (٢) فألفيته : وجدته ،
(٣) مأربنا : مرادنا ، (٤) متردى : يقصد مرتدين ،
(٥) خلتنى : ظننت ، (٦) ناف : زاد ،
(٧) حرسىّ : شرطيّ لحفظ النظام ،

من كانوا يتوافدون على (المحطة) من الأهالى فملابسُهم فى الغالب كملابس الكرجيين (١) (وهى السلطة والسروال) غير أنهم يتعمّمون بعمائمَ حمر . وقد لاحظتُ على فتيانهم أنهم يضعون العمائم علي فودهم (٢) فتكسو ناحيةً من الرأس وتدَعُ باقيها مكشوفًا حاسراً ، وأظن أنَّ منشأ ذلك هو الإعجاب بزهو (٣) الحداثة ومخيلة (٤) الشباب ، وينتعلون فى أقدامهم أحذيةً كأحذية (أولاد البلد) عندنا ، وهى المسماة (بالمراكيب) ، غير أنها غريبة فى شكلها إذ كانت ذات نعل سميك ممتدّ بطول القدم يقوم على جوانبه سياج (٥) من الجلد ، وهو أقل ارتفاعًا من المعروف هنا ، ويختلف فى ملابس الأغنياء عنه فى ملابس الفقراء بفرق قليل ؛ هو أن أولئك يضعون فى زمن البرد عليه غطاءً من الجلد آخذاً من رؤوس الأصابع إلى ما يدانى مفصل القدم . وهؤلاء يتخذونه من الخرقة ونحوها ، وعلى كل حال يُشدُّ ذلك الغطاء بأربطة على ظهر القدم . وكنت أرى فى نفس أولئك القوم وداعةً ، وفى أخلاقهم لطفًا ، وفى عرائكهم (٦) لينًا ، ولعل ذلك كان من أنهم لا يمرُّ بهم السياح كثيراً كما يمرّون بغيرهم فيجدون منهم ائتلافًا وبهم ائتناسًا .

وبينما نحن على إفريز (رصيف) المحطة نروحُ ونجيء ريثما

---

(١) الكرجيين : أهل كرواتيا .   (٢) فودهم : جانب رأسهم .

(٣) زهو : فخر .

(٤) مخيلة : يقصد الزهو والإعجاب بالنفس .

(٥) سياج : إطار .   (٦) عرائكهم : طبائعهم .

يحين وقت الركوب ، إذا رجلٌ من أهالى تلك البلاد يتأثر قَصَصَنا(١) ، ويتبع حركاتنا ، يسير إذا سرنا ، ويقف إذا نحن وقفنا ، فما ارتَبنا فى أن هذا الرجل من المخبرين السريين ، ولعله يرقبنا لكونه رآنا لابسِي (الطربوش) ، ويجوز أنه لو لم يرَنا على ذلك الزى لم يتتبعنا كل ذلك التتبع .

ثم إنه اقترب منا وسألنا عن أسمائنا وبلادنا ، فما وسعنى إلا أن أخبره بأسماء صاحبى وحاشيتى ، أما أنا فأعطيته اسمى الذى تعوّدتُ أن أتسمَّى به فى سياحاتى وهو (محمد أحمد بك) . وبعد ذلك سألَنا عما إذا كانت هذه أول سياحة لنا فى بلاد البوسنة ؟ وهل نحن متوجهون بعد إلى « مسطار » عاصمة الهرسك ؟ ... وإنما عنى بهذين السؤالين وخصوصًا الأخير منهما لواقعةِ حالٍ لا نرى بأسًا مِن ذِكرها؛ وهى أنه موجود فى « مسطار » كما هو موجود فى غيرها مدارس للرهبان ، يدرِّسون فيها علومهم ويبثّون عقائدهم ، وفضلاً عن ذلك فهم يَدْعون إلى النصرانية من يقع تحت أيديهم من المسلمين ، وقد وقع أن تديَّن بدينهم ثِنْتان من النساء المسلمات ، واستدعى ذلك أنْ دبَّ الهرجُ والمرجُ فى جماعة المسلمين هنالك ، وبلغ منهم الغيظ والتذمر مبلغًا عظيمًا ، ولكنهم رأوا من العقل والأناة أن يرفعوا شكواهم إلى جلالة امبراطور النمسا الذى لم ير أن يُهدئ نفوسهم ويسكن ثائرتهم إلا بالسكوت عنهم ، وأن يغلق فى وجه تلك الفتنة هذا

---

(١) يتأثر قصصنا : يراقب ويتتبع خطواتنا .

الباب ؛ فلم يُجبهم على شكايتهم بجواب ، فحسبَ ذلك الرجل أننا جئنا من تركيا بهذا الصدد ، ولذلك كان يدأب بسعيه على كشف الحقيقة ، ويتبحثنا بما لا يقلّ عن سعى المخبرين ، ولا أظنه إلا كذلك ، ولما لم تكن (مسطار) مما عَوَّلنا(١) على ارتياده (٢) فى خطتنا الثانية ، أخبرناه بعدم ذهابنا إليها واكتفائنا من هذه السياحة بزيارة بلاد البوسنة ، فبرقتْ أساريرُ الرجل ، وظهرت على جبينه علائمُ الفرح والسرور ، وأخذ يحيِّينا كما يحيى رب البيت أضيافه ، وطفق (٣) يشرح لنا مزايا السياحات ، وما يتعرض المسافرَ من التعب والراحة ، وما فى بعض البلدان الأوربية من غرائب التحف وعجائب الطرف ، فقلت له : أرِحْ نفسك ؛ فبما أزَلَّ لنا (٤) المغفورِ له والدنا من النعمة تطوَّفنا بلاد أوربا وجُلناها(٥) شرقًا لغرب ، وجُبناها شمالاً لجنوب ، ووقفنا على ما فيها ، وعرفنا ما بين دفتيها .

وكان حديثنا باللغة الألمانية ، وكنت ألاحظ أن بين جوانح الرجل دعةً ،وفى معاملته لطفًا وأدبًا .

ركوب قطار البوسنة إلى سراجيفو

ولما أزف الترحُّل(٦) ، ودَّعَنا الرجلُ وودَّعناه ، وركبنا القطار حيث وافانا القومسارى وذهب بنا إلى المحل المعَدّ لنا ، وإنى م. ـ

---

(١) عولنا : عزمنا . (٢) ارتياده : الذهاب إليه .
(٣) طفق : شرع . (٤) أزلَّ لنا :حبس لنا أو أوقف علينا .
(٥) جلناها : تجولنا فيها .(٦) أزف الترحل : قرب السفر .

للقارئ كيفية عربات النوم فى بلاد البوسنة وما ألاحظه عليها .

أما تلك العربات فقد ذهب البسناويون فى شكلها وهيئتها مذهبَ الأمريكانيين فى عربات « بولمن كار » تقريبًا ، وكانت العين الواحدة تشتمل على أربعة مقاعد أخذ كلٌّ منها بزاوية من زواياها الأربع ، ولم تدع إلا الطريق الذى يرسم بينها شكلاً صليبيا بقدر ما يَسَعْ مرورَ الراكبين ، وليس على المسافر عند إرادة النوم إلا أن يعمد إلى تلك المضاجع فيقلبها ، فيستحيل كلٌّ اثنين منها إلى سرير واحد للنوم . وقد أعدُّوا على كل سرير وسادةً وغطاء خاصًا بالسفر ويسمى (برغان) ، وستورًا إذا أرسلها المضطجع تكون حجابًا بينه وبين غيره بحيث لا يراه أحد كأنه فى غرفة منزله . ولقد كنت أعالج إقفالَ باب العربة قبل أن يسير القطار حتى نطمئن بعدم دخول أحد إلينا ، غير أنى لم أتمكن من ذلك لأن غرفتنا كانت ممرًا إلى غيرها ، فأبتْ ضرورة المرور إلا أن يبيت الباب مفتوحًا وأن لا نبيت إلا قلقين . ومما ألاحظه أنه لم يكن فى ذلك القطار – على كثرة عرباته – إلا محل واحد للغسيل وآخَر لقضاء الحاجة مع أن حاجة المسافرين داعيةٌ إلى أكثر من ذلك . كما أنى كنت ألاحظ أن ركاب الدرجة الأولى فى بلاد البوسنة كركابها فى بلاد النمسا قليلون ؛ ولعل ذلك كان سببًا لتقليلهم من عربات هذه الدرجة ، إذ كنتُ أرى القطار الذى تبلغ عرباته نحو العشرين ليس فيه إلا اثنتان من الدرجة الأولى .

سار القطار وأنا منبسط النفس منشرح الصدر لما علمتُ

أنى سأملك راحتى فى مدة السفر التى كانت من وقت قيام القطار إلى حين وصوله لا تقل عن ثمانى ساعات ، وما توسَّد صديقى محسن بك وسادتَه حتى أغرق فى النوم وحتى أنِّى كنت أسمع له غطيطا (١) عاليًا ، وأما أنا فحينما أويتُ إلى سريرى ورأيتُ أن الستار الذى كان يخيل إلىّ أنه حجاب منيع بين النائم وغيره لا يكفى فى ردّ البصر وستر ما وراءه عن عيون الناظرين ، ولا سيما الذين يهمهم التجسس على أحوال الناس وترقيب(٢) خَبياتهم(٣) أسفتُ أسفًا عظيمًا ، ومَن ذا الذى لا يبلغ منه الأسف مبلغه منِّى إذا بات وقد أمْسَى هدفًا لسهام الأنظار وغرضًا لما عساه يعرض فى السفر من الأخطار ؟!.

ولما حضر القومسارى استودعتُه تذاكرَنا حتى لا تكون داعيًا إلى تردده علينا بقصْد التساؤل عنها ، غير أنّا استعضناها منه بتذاكر مرور نجتاز بها أبواب (المحطة) إذا نحن وصلنا ، وأنبهناه إلى أنْ يوقظنا عند الساعة الثامنة صباحًا ، ثم انصرف ممتثلا (٤) إلى حيث شاء ، فلم يبق إلا أن أعمد إلى إطفاء سراج الغرفة لعلى أجد من وراء ستور الليل الحالك ما أتغانَى (٥) به عن ستور القطار ، فأنام مستريحَ الخاطر مطمئنَ البال (وقد تعودتُ أن أنام وليس فى ردهتى شعاع) وماذا كان يفيدنى إطفاءُ المصباح

---

(١) غطيطًا : شخيرًا . (٢) ترقيب : مراقبة .

(٣) خبياتهم : يقصد خبيئاتهم .

(٤) ممتثلا : مستجيبًا . (٥) أتغانى : استغنى أو أكتفى .

ومصابيحُ السماء تملأُ بأشعة ضيائها الفضاء ، ونورُ البدر الساطع يخطف بأشعته الآلقة (١) أنظار الرائين ! وبالجملة فكلٌّ ما تداركتُه من ضروب الحيطة للنوم والهجوع (٢) ، قد ذهب أدراجَ الرياح . ومما أطال أرَقى وزاد فى قلقى أن السرير لم يكن مستوفياً شرائط الراحة ، حتى أفْضَتْ بى (٣) الحال إلى أنْ أبيتَ بملابسى العادية إلى أن بدت تباشيرُ الفجر . وحين ذلك أشرفتُ برأسى من خلال النافذة لعلى أتلقَّى هبَّات الصَّبا وأقابل نسمات الصباح ، وأستجلى ما شاق (٤) من مناظر الطبيعة التى تخيلتُ مع حُسْنِها ونضارتها أنى فى بلاد سويسرا (وما أشبه الليلة بالبارحة) لولا أن سويسرا تمتاز بسعة نطاقها ، وامتداد رواقها ، وجبالها السامقة(٥) المتوّجة بالثلوج المتراكبة . ولقد كان الطقسُ وقتئذ باردا والضباب مخيِّما فى الآفاق ، بيد أنه كان خفيفًا .

عاداتٌ وأخلاق

وكان يروقنى رؤيةُ الشبان الذين كانوا يمرون أسرابًا، وعلائمُ الشجاعة تبدو على وجوههم ، وأزياؤهم فطرية بسيطة غير أنها جميلة ، مكشوفى الصدور ، لا تتهيب ضلوعهم تغيراتِ الطقوس ولا تقلبات الأجواء ، يقتادون بأيديهم أعِنَّة خيولهم التى تغدو وتروح تحت الأحمال الثقيلة على طريق زراعى منتظم

---

(١) الآلقة : بقصد المتألقة أى اللامعة .

(٢) الهجوع : الرقاد .

(٣) أفضت بى : أدت بى .

(٤) ما شاق : أعجب وجذب الانتباه .

(٥) السامقة : المرتفعة .

الشكل معتدل القوام ، ممتد بحذاء السكة الحديدية . وخيولهم تلك شبيهة بخيل المهاجرين ؛ قصيرة الارتفاع ، طويلة الشعر، ضامرة الجسوم ، ليست من الحسن والبهجة فى شىء ، ومع كل ذلك فهى قديرة على احتمال الأثقال وتجشُّم الأعمال الجسام . وأما حجمُها فكنتُ أراه وسَطًا بين الخيل القصيرة فى بلاد اليونان والخيل فى بلاد العرب ، وكنتُ أرى من وقتٍ لآخر جملةً من الخيول ترعى فى مراعيها وهى مطلَقة لا تُثقل أرجلَها القيود ولا أعناقَها الأغلال ، وعلى ظهور بعضها سروجٌ منجورة(١) من الخشب على هيئة غريبة ، وعلى ظهور البعض أغطية بسيطة .

والأهالى الذين يقومون بحراسة بهائمهم ليلاً يأوون إلى أكواخٍ وقتية (٢) يبنونها بجذوع الشجر وصنوانها ، وهى تُشبه فى هيئاتها منازلَ أبناء الصرب ؛ حيث أن جزءًا كبيرًا من سكان البوسنة أصلُهم صربيون ، غير أن ملابس أهالى البوسنة كلهم على طراز واحد من غير تمايز بين الصربى العنصر والبوسنوى العنصر والمكان ، والذى يراهم لا يشك فى أن فيهم وداعةً ومسالمةً مع ما فيهم من بسالة الأتراك وشجاعتهم ! .

وأما حيواناتهم الداجنة كالخيل التى ذكرناها آنفًا وغيرها من البقر والثيران والضأن والمعز، فصغيرة الحجم ضئيلة الجسم . وقد

---

(١) منجورة : من النجارة وهى حرفة النجّار تصنيع الخشب .

(٢) أى مؤقتة غير دائمة .

كنت ألاحظ على فلاحيهم أنهم كسالى؛ لا تبعثهم عزمة ولا تُنهضهم إلى الشغل همَّة . والذى يقف على أراضى القوم ويُنعم النظرَ فى جودة معدنها وخصوبة تربتها وتهيُّئها للزراعة ، ولا يبصر فيها بذراً ولا نباتاً ، لا يتمارى فى فتور عزماتهم ، ويدرك سر تأخرهم وتركهم مصادر أرزاقهم وموارد أقواتهم تناديهم فلا يجيبون !!!

وطريقتهم فى دراسة القمح وشبهه بسيطةٌ عليهم شاقةٌ على خيولهم ؛ إذ ليس لديهم (نوارج [١]) ولا هم يعرفون آلات للدراسة ، بل إنما يدرِسون بسنابك الخيل . وكيفية ذلك أن يقف أحدهم ويأخذ بزمام فرَسٍ أو فرسين ويسوقهما حتى يرسما عليه دائرة هو مركزها والغلةُ من تحت أرجلهما ، ولا تزال كذلك حتى يتم الغرض .

ولا شك أن فى تلك الطريقة صعوبةً كبرى ومشقَّة عظمى على تلك الخيل البائسة التى حَداها [٢] سوءُ بختها وشؤمُ طالعها على أنْ وقعتْ فى أيدى أولئك الغلاظ القاسين .

أما حرّاس أغنامهم مدى نهارهم ففتيتُهم الأحداث . وهيئة الرعاة فى تلك الأصقاع كهيئتهم فى بلاد « البلقان » .

أما النساء المسلمات فيلبسن (الفرجية) من الطراز الذى كان على عهد المغفور له السلطان عبد العزيز ، وينتقبن ببراقع

---

(١) جمع نورج : آلة تستخدم فى الحرث .

(٢) حداها : ساقها .

تستر كلَّ الوجه ، غير أن لكل واحد فرجتين بإزاء العينين بقدر ما تسع خيوط النظر ، ولذلك كان من النادر أن يرى الإنسان وجوه أولئك السيدات . وينتعلن (الجزم السَّوارى) ، ومن عاداتهن أنْ لا يخرجن من بيوتهن ولا يتجاوزن خدورهنَّ إلا للحاجات التى تستدعى الضرورة خروجهن فيها كالسياحات مثلاً .

وقد كنتُ ألاحظ أن أطفالهم صُفْر الشعور غير أن ذلك لا يصاحبهم إلا وهُمْ فى دور الحداثة ، وإذا ما شَبُّوا اسودَّت شعورُهم . ومما يُمدحون عليه رعايتُهم لصحة أبنائهم واعتناؤهم بنظافتهم . وقد فاتنى أن أذكر أن رجالهم يَجْدُلون شعورَهم ويضفرونها حتى تصير خصلةً واحدة يرسلونها على القفا أو ناحيةً من الرأس ، وهى شبيهة بضفائر « التتار » « والصينيين » ، ولا أظن إلا أن تلك العادة سرَتْ إليهم من « المنجول » أو « الهـا » أو « التركمان » الذين لا بد أنَّ بعضَهم مرّوا بتلك الأقطار وسكنوها حينًا من الدهر حتى سَرَتْ منهم إلى أهليها تلك العادة .

ولقد كنتُ كلَّما وقع نظرى على مناظر تلك البلاد وراقنى جمالُها الطبيعى ، وسرَّنى ما اشتملتْ عليه من محاسن الأشياء وطرائفها يبلغ منى الأسف ويذهب بى الجزعُ على تلك البلاد التى كانت محوطةً بسيادة الأتراك مشمولةً بحكمهم ، وقد سُلِخَتْ منهم وتأمَّر عليها سواهم .

أما جبالها فلم تبلغ فى الارتفاع والمنعة مبلغ غيرها ، ولا يلزم الذى يحاول طلوعها أن يكون أصلُه من سكان « الألب » .

ولكنها جميلة الشكل بديعة المنظر ، تعتليها حواجز كثيرة أغلبها قصيرة الارتفاع ، وقد أقيمت ثمةَ لتكون سياجًا لِما يعلو تلك الجبال من المزروعات ٠

ومما لا أعرفه إلا فى تلك الجهات أنَّ كل شىء فيها قصير اللهمّ إلا الرجال ٠ ومِن العجب أن يقع نظرى على ناس لا يزيدون على الست أقدام طولاً مع أن نساءهم كغيرهن من المتوسطات فى نساء العالمين ، وتوسُّطُهنّ فى الطول لا يمنعهنّ من أن يُنجبن أولادًا يُطاولون آباءَهم ! ٠

وقد مررنا ببلدة تسمى « دبك » ، ومررنا كذلك بقرى كثيرة لأن الوابور كان كثير الوقوف حتى على المحطات التى ليس وراءها إلا قرية صغيرة لا تزيد أبنيتُها على الثلاثة مساكن ، وذلك لأن معظم الركاب كانوا فى الدرجة الثالثة ٠ وكنا نجد الفلاحين كثيرى الركوب والنزول بين تلك القرى ٠

وكنتُ أرى النساءَ الصربيات هنالك على ملاحة فائقة وجمال رائع ؛ دقيقات الخصر ، نحيلات القوام ، شديدات حمرة الوجوه لكثرة ما يجرى فيها من الدم الذى يدلُّ على جودة الصحة ووفرة العافية ، وهنَّ يلبسن السراويل ، والمتزوجات منهنّ يضعن على رؤوسهن قلنسوةً بسيطة على شكل (العزّازية) ، واللائى لم يتزوجن يلبسنها مطرَّزة مُحَلاةً بشغل (الإبرة) ومُرَصَّفة (١) بالنقود الصغيرة ٠ وبالجملة فالأزياء العمومية لا تخالف أزياء

---

(١) مرصفة : مزينة ٠

الشرقيين . والغريب أن ما يضعن على رؤوسهن يشبه تماماً ما يلبس بنات قبيلة أولاد النائب فى الجزائر، مع ما بين أولئك وهؤلاء من البعد الشاسع والبَوْن العظيم !! . .

* * *

قويتْ شوكة الشمس وأخذت سهامها تمزق جسمَ الضباب الذى أسلفنا أنه قد مدّ رواقه على تلك الأرجاء ، وأخذت تظهر من تحته المناظر جلية واضحة . فكنت أرى الفلاحين وهم رائحون وقد أوْدعوا مآكلهم فى سلاَّت كبيرة وأوثقوها على ظهور الحيوانات الشبيهة بالحُمُر التى يُبالَغ فى تحميلها الأحمال حتى لا تظهر هى من تحتها ، وينتقلون بها من مزرعة إلى مزرعة .

ومن غريب ما رأيتُ فى أولئك القوم أنهم يركبون خيولهم وهى مسرَّجة بسروج من الخشب على شكل (جمالون) ، وبذلك يكون الراكبون مضطرين لأن يتحدَّروا (١) منها إلى أعناق الجياد ، وتلك السروج تشبه فى شكلها سروج الجمال فى مصر . وقد أخذ تلك الطريقة عن البوسناويين (أسلاوون) الفارسُ الأمريكانى المشهور ، ونقلها إلى بلاد أوربا ، فاستفزَّ ذلك غضب الأهالى حتى كادت تستيقظ الفتنة بين القوم .

وكنتُ كلما مضت من النهار فترةٌ أجد الغادين والرائحين على الطريق الزراعى قد كثر عددُهم وزادت حركتهم ، وأُبصر الخيلَ وهى تسير فَرادَى أو قطاراً (٢) آخذاً رأسَ كل واحد بذنَب

---

(١) يتحدروا : يميلوا .   (٢) قطاراً : جماعة أو قافلة .

الذى أمامه ، كما يُرَى ذلك كثيراً فى جمال المصريين . ومما يلفت نظر السائح ويستدعى عجبه قلةُ المساكن مع سعة الفضاء ، مما يدل على قلة السكان فى تلك الأصقاع ، وإنى لأحدِّق فى المساكن الصغيرة فأُلفيها نظيفةً جميلةَ الهندام وهى تحتوى غالباً على طبقين ؛ الأسفل منهما مبنيٌّ بالحجر ، والأعلى مدعوم بالخشب ، وهى معروشة بسقف من الخشب موضوع على شكل (جمالونى) ليكون فيه منحدر للمطر كما هو الشأن فى مساكن الجهات التى يكثر فيها هطول الأمطار .

والأهالى هنالك يتحرّون بناء المساكن فى المواقع الجميلة ؛ كأن تكون على ربوة مُخْضَلَّة (١) أو بجانب بحيرة مترعة (٢) ، أو وسط غابة ملتفَّة الأغصان ، أو على شاطىء نهر ملتطم الأمواج . ثم هم يكثرون من عدد النوافذ فى الأطباق العليا كما يزيِّنونها (بالتراسينات) الجميلة .

ولـمّا أن وافت الساعة التاسعة صباحًا والدقيقة الخامسة والعشرون وصل القطار بمعونة الله وفضله إلى « سراجيفو » عاصمة بلاد البوسنة . وعندئذ نزلنا مسرعين إلى (المحطة) لأن الجوع كان قد بلغ منا وقتئذ ما لم تبلغ مشقة السفر ، ولذلك أوعزتُ إلى صاحبى محسن بك بأن يسرع فى تجهيز حاجتنا ، وتركنا متاعنا عند محمد أغا . وقد صعب علينا أن نهتدى من تلقاء أنفسنا إلى الباب الذى يجوز الناس منه إلى المدينة ؛ حيث أن

---

(١) مخضلة : ندية ؛ خصبة . (٢) مترعة : ممتلئة بالماء

كل الكتابات المرقومة على الأبواب مرسومة باللغة البوسنوية ، ولا خبر لنا بها ، ولكن هدانا إليه رجل من سكان تلك البلاد كان مترديا(١) بمثل ملابس العثمانيين غير أنها قريبة من ملابس الأكراد . فلما انتهينا خارج (المحطة) وجدنا كثيراً من الناس ينتظرون مجيءَ القطار الذى برحناه (٢) ليذهبوا فيه إلى « مصطار » عاصمة الهرسك . أما عربات الكراء (٣) التى كانت فى ميدان (المحطة) لانتظار المسافرين وقتئذ ، فمع كونها لا تزيد عن عشر ، فإنها لا تنال من استحسان الراكب إلا كما تنال عربات بعض المدن فى القطر المصرى مثل طنطا وبنها . وقد رأينا فيما بين الحوذيين رجلاً يؤْخَذ من شكله أنه مسلم فضلاً عن كونه كان هادئًا وادعا . فقصدناه من بين رفقائه ، وأشرنا إليه أن يذهب بنا إلى فندق أوربا وهو يَبْعُد عن (المحطة) ثلث الساعة للراكبين .

مدينة سراجيفو

ولقد رأينا المدينة كمدائن أوربا سعةً وانتظاما ، وحيث أعدّوا لاستعمارها ما استطاعوا ، وتركوا بين الأبيات من الفضاء ما كفل بظهور مناظرها وتَجَلِّى مخابرها . ويجرى فى طرقاتها تراموای بخاری ليكون وصلةً بين (المحطة) وقلب المدينة . وهناك تراموای كهربائى كالذى يعهده المصريون ، غير أن سائقه يقف فى وسطه لا فى مقدمه كما هو الشأن هنا .

أما ذلك الشارع الممتد من (المحطة) حتى ميدان المحافظة

---

(١) مترديا : يقصد مرتدياً . (٢) برحناه : غادرناه .

(٣) عربات الكراء : سيارات الأجرة .

فواسع رحيب ، وهو منقسم إلى ثلاث طرائق ؛ أحدها خصيص بالتراموای ، وآخر بجانبه للعربات ، والثالث للدراجات والخيَّالة ، وعلى جانبَىْ ذلك الشارع العددُ الكثير من القهوات وحوانيت التجارة تعلوها مساكن عالية وبيوت سامقة [١] يحتوى الواحد منها على أربعة أطباق .

وما زالت مركبتنا تعدو بنا فنستقبل منظراً ونَدَعُ آخر حتى رأينا ثكنةً (قشلاق) عظيمة فخمة الهيئة ضخمة البناء ، ولمحنا فى فنائها بعضَ الضباط وقوفًا أمام باب حديقة صغيرة ، وقد أخبرنا الحوذىُّ أن هذا الباب طريقٌ إلى مجتمع الضباط وناديهم الخاص بهم ، فتجاوزنا ذلك القشلاق ، وكنا إذا تلفتنا يمنةً أو يسرةً نرى فوق التلال المعاقل [٢] المنيعة والقلاع الحصينة ، حتى غادرنا ذلك الشارع وأخذنا طريقنا فى الشارع الموصِّل للفندق ، فرأينا فيه من الأهالى والضباط الجمَّ الغفير والجمعَ الكثير .

ولما كان المستخدمون هنالك يتردّون [٣] الأرديةَ العسكرية ، كان يخيَّل للناظر ولا سيما إذا كان من الغرباء أن هناك حملة عسكرية أو هو بين جيش عَرَمْرَمَ ...

وإنّا لنطوى بمركبتنا هذا الشارع طيًّا ، إذ وقفت العربة تجاه الفندق الذى أسرعنا إليه ، وإذا ببابه صاحبه - وهو رجل مجرى - واقف فى انتظارنا ومعه رئيس الخَدَمة الذى كان يتظاهر بجانب

---

(١) سامقة : مرتفعة . (٢) المعاقل : الحصون .

(٣) يتردون : يقصد يرتدون .

سيده بمظهر الرئاسة ، فطلبنا أن تُعَدَّ لنا غرفتان متداخلتان غير أنَّ كثرة الزحام الذى سنتكلم على سببه بَعْدُ لم تُبلغنا مثل هذا المطلب ، فلم يتسنَّ (١) لهم أن يُعدّوا لنا إلا غرفة نمرتها ١٠ لى ، وأخرى نمرتها ٤ لصاحبى ، فحمدنا اللهَ على وجود غرفتين خاليتين ولو غير متجاورتين ؛ فذلك خيرٌ من عدم وجودهما مطلقًا .

ولما أزفت الساعة العاشرة صباحًا طلبنا شايًا ولبنًا ندفع بهما الجوع إذ كنا لم نفطر بعد . فجاءَنا رئيس الخدم وحيث سمعنى أتناجَى وصاحبى باللغة الفرنساوية ، أراد أن يكلمنا بها مع أنه لا يحسنها بل ينطق بها ركيكة سقيمة ، وكان لا يظن أننا نعرف الألمانية التى هى شائعة فى تلك البلاد ، كما كنا نظن أننا لو عَدَلْنا فى حديثنا عن الفرنساوية إلى الألمانية لعدل معنا إليها . غير أننا أخلفنا ظنَّه فتكلمنا بها ، وأخلَف ظننا إذ استرسل فى فرنساويته الركيكة التى كان يحاول بها – واللهُ أعلم – المماجنة (٢) واهمًا أنه يشرحُ بذلك صدورنا ويَسُرُّ أفئدتنا .

وفى غضون ذلك وصل خَدَمُنا إلى الفندق وساوموا صاحبه فى أُجر محلاتهم حتى عرفوها ، ولم يخبروا أحدًا أنهم تابعون لنا . ثم أحضر لى محمد جعفر الشماشرجى خريطتى (شنطة) فى غرفتى ، وأردفه (٣) واحدٌ من خدم الفندق ليأخذ منا

---

(١) يتسنَّ : يتيسر .

(٢) المماجنة : مشتق من المجون ويريد به أن يكون ظريفا ولطيفًا .

(٣) أردفه : تبعه .

التعاليم [١] المعتاد أخذها من المسافرين ؛ فتناولتُ رقعةً وكتبتُ فيها أن محسن بك من أهالى مصر وأنه ليس بموظف بل يعيش بفضل ماله ومحض ثروته ، وكتبتُ عن نفسى أنى (محمد أحمد بك) من سكان طنطا فى القطر المصرى ، وأن معنا ثلاثة من الخدم ، وبعد أن سألنَا ما شاءَ أن يَسأل وأجبناه بما شئنا أن نجيب أرسلتُ من يتفقد واحداً من أخدان [٢] التلْمَذة فى مدرسة النمسا عسى إن نحن ظفرنا به أن يكون دليلا لنا فيما نروم [٣] أن نعرفه ، ورائداً [٤] لما نحب أن نكشفه فى ذلك البلد ، وهو صديقى العزيز محمد باكر بك الذى أُخبرت بعد مع الأسف أنه موجود ببلدة أخرى تسمى « طوظله » تبعد عن « سراجيفو » التى نحن فيها نحو ثلاث ساعات ، وإنَّ لى صديقًا آخر وهو المسيو « بترويش » كان حائزًا على وظيفة قنصل فى بلدة تسمى « أولونه » من أعمال بلاد الأرناؤُد ، وإنه لم يكن موجوداً بسراجيفو ، غير أنى أُخبِرتُ أن أخاه الصغير موجود هناك ، فأرسلت إليه من يدعوه لزيارته [٥] فى الفندق ، فانطلق الرسولُ وعاد مخبراً بأنه سيحضر بعد ساعة ونصف ، فوجدتُ فى هذا الظرف ما يسَعُ أن أستريح مِنْ وَعْثاء [٦] السفر وأغيِّر ملابسى التى كان غمرَها الغبار بملابس أخَر ، وأن أستعمل أيضًا (حمام القدم)

---

(١) التعاليم : يقصد البيانات ، (٢) أخدان : اصدقاء ،
(٣) نروم : نريد ، (٤) رائداً : دليلاً ،
(٥) الصحيح يدعوه لزيارتى ، (٦) وعثاء : مشقة ،

لولا أن المتاع الذى كنت أنتظر مجيئه تأخر أكثر مما كنا نظن ، حتى أغضبني ذلك ودعتنى الحال إلى أن أمرتُ محمد أغا بأن يستأجر عربةً ويذهب بها سريعًا إلى (المحطة) ليتعجل ذلك المتاع . أما عربة الفندق التى تنقل إليه أمتعة المسافرين فقد عرفنا أنها لا تحضر إلا بعد وصول القطار الثانى حتى تأتى بمنقولات القطارين جميعًا . ولما كانت المسافة التى تسع ذهاب محمد أغا ورجوعه لا تقل عن أربعين دقيقة ، رأيتُ أنْ أشْغَلها بنزع ملابسى ، وفيها حلقتُ ووضعت على شاربى آلة تثبيت الشعر ، وأدليتُ قدمىَّ فى الماء الساخن (حمام القدم) ...

المستر بيترويتش

وفيما أنا كذلك إذ جاءَ رئيسُ خدم الفندق وأخبرنى بأن المسيو (بيترويتش) نفسه قد حضر وأنه ليَريد الدخول إلىّ والتسليم علىَّ . فأوعزتُ إلى هذا الرسول بأن يتمهل بالضيف ريثما أجفِّف قدمىَّ وألبس ثيابى . فما انثنى حتى رجع ثانيةً يخبرنى بأن الزائر لا يرى بأسًا من مقابلتى كيفما كنتُ . فلم أر كذلك مانعًا من التصريح له بمقابلتى والحال على ما وصفنا ، حيث كان الزائر صديقى وقرينى المسيو « بترويتش » .

فجاءَ الضيف ، ولكنى لم أجدنى أعرفه ، بل ولا أحسبنى رأيته مدى عمرى ؛ إذ كان هذا شابًا ملتفَّ اللحية ! وليس يعلم إلا الله مبلغ دهشتى وحيرتى عند لقاء شخص لا أعرفه على تلك الصورة . ولكن ما عساى أصنع بعد الذى كان ، فاضطررتُ إلى استقباله والحفاوة به ورِجلاى مرسَلتان فى الماء، والعباءَة فوق

منكبيّ! وقبل أن آخذ معه بطرف الحديث قدّمت إليه معذرتي عن مقابلته على تلك الحال . وحين اطمأن قلبي بأنه أخو صديقي المتغيِّب ، أخذت أسأله عن إخوته كيف شأنهم وفي أي البلاد هم. فأجابني بأن أخاه لكبير لا يزال في بلدة « أولونه » ، والثاني في « زابتكا » ، وهذه تبعد عن سراجيفو نحو أربع ساعات . ولقد كان يدور بيننا ذلك الحديث والرجل ما زال لا يعرف مَن يخاطبه حتى رغب إليَّ في أن أعطيه اسمي ليخبر به أخاه على لسان البرق ويُعْلمه بوصولنا إلى تلك العاصمة . فلم أر بُدًّا من أنْ أوقفه (١) على اسمي الحقيقي ، غير أني أظهرتُ له رغبتي في أن لا يُشعر بنا – غيرَ أخيه –أحدا . وما كدتُ آتي على هذا البيان حتى نهض قائماً واستأنف السلام وقال « اذكر يا مولاي أني الآن ماثل بين يدي شقيق سموّ الجناب العالي الخديوي » وإذ ذاك لم يسعني إلا أن أقوم كذلك لأردّ له تحيته الجديدة ورِجلاي ما زالتا مرسلتين في الماء ! .

ثم جلستُ وجلس ، وكان الحديث يدور بيننا على موضوعات شتى كنت أجد في خلالها غاية السرور والانشراح ، وخصوصاً لِما كنت أستشِفُّ من ذلك الزائر وحديثه ذكرى العهد الأولَ والسنين الخوالي التي كانت تجمع شتاتنا ونحن إذ ذاك في طور الحداثة وتضمُّ شملنا هناك وعائلتنا .

وكان من حديثه أنه أصغرُ إخوته عمراً وأن سنيه لم تزد

---

(١) أوقفه : أطلعه .

على أربع وعشرين ، مع أن الذى يراه لا يرتاب فى أنه نيَّف [١] بعمره على ثمانية وثلاثين عاماً ! ثم استأذن فى الانصراف ، ولم يكن شغل مجلسنا هذا أكثر من ربع الساعة ، ولم يبرح الغرفة إلا بعد أن بسط لى رغبته فى أن أُنزله منزلة إخوته ، وأُحلَّه محلتهم من العشم فيه والثقة به ، وأن يكون تحت إرادتى ما دمتُ موجوداً فى ذلك البلد . فشكرت له تلك الأرْيَحيَّة . وكنت قد طَويت العزم على أن أجعل مبدأ تطوافى فى اليوم الثانى خشية أن أشقَّ عليه إذا أنا جعلتُه فى اليوم الأول ، وما أريد أن أشق على الرجل وقد رأيت فيه من اللطف والوداعة ما ارتحتُ له واستأنستُ به ، غير أنه أبَى إلا أن أضرب له موعداً قريبًا لمصاحبتى فى ارتياد هذه المدينة ، ولجَّ [٢] فى طلبه بما لا يَسَعُنى معه إلا موافقته ، فوعدتُه بأن يحضرَ إلىَّ بعد ساعتين ونصف ، فانطلق حيث يريد .

وقد آن وقت الظهر الذى هو ميعاد غَدائنا ، فسارعتُ لألبس ثيابى ، وانثنيتُ راجعًا قاصداً محل الخوان ، وما جاوزتُ الغرفة إلى الطريق الذى أمرُّ فيه بردهة صديقى محسن بك حتى رأيتُ رجلاً يبلغ عمره زهاء الخمسين يقصدنى ، ولم أكن لأدرى وقت ذاك ما يبتغى منى، وقد قرأتُ على جبينه أنه خاتل خادع . وما هو إلا أن ناولنى بطاقةً يعرِّفنى فيها باسمه وأنه ترجمان ، وما عرفتُ من اسمه لأول وهلةٍ وقع نظرى على التذكرة إلا أنه (حسين) ! وبعد ذلك [٣] طفق يبين لى أنه يعرف كثيراً من

---

(١) نيَّف : زاد .   (٢) لجَّ : أى ألح وأصر .

(٣)طفق : شرع .

المصريين وبينهم عزت بك السكرتير التركى للجناب العالى الخديوى . فقلت له : إليك عنى الآن ، وإنا لطالبوك إن شاءَ الله عندما تدعو الحاجة إليك .

ولما أعدتُ نظرى إلى تلك البطاقة وجدتُ أن اسمه المرقومَ عليها هو (حسين اولموتث باشا) ، وعلمنا ممن يعرفونه أنَّ سبب انتحاله هذا الاسم كونُه سُجن فى البلدة المسماة بـ « الموتث باشا » حينما احتل النمساويون بلاد البوسنة . وكان مطبوعًا على ظهر التذكرة أسماءُ المشاهد التى يجدر بالسياح أن يزوروها . وقد أفادنى كثيرًا هذا البيان حيث انتخبتُ من بين تلك الأماكن الجهات التى استحسنتُ أن أزورَها صحبةَ المسيو (بيترويتش) وسجَّلتها على بطاقة من بطاقات الزيارة ، وهى هذه : الأول (انتيقخانة البلد) ، والثانى والثالث (جامع بيجوفا ومدفن خسرو بك) ، والرابع (مدرسة الشريعة) ، والخامس (معمل الأبسطة) (١) ، والسادس (كنيسة الصرب القديمة) ، والسابع (بَزار) ، والثامن (معمل الدخان) (٢) ، والتاسع (الدراويش الذاكرون) ، والعاشر (كورسيلوك) ، والحادى عشر (كوبرى المعيز) .

ولمّا لاقيتُ محسنا بك أخذتُ بيده وسعَينا لنتعرف غرفة الطعام حتى انتهينا إلى بهو قاتم الجوّ قليل الضياءِ كان أكبر تذكار

---

(١) معمل الأبسطة : مصنع السجاد .

(٢) معمل الدخان : مصنع السجاير .

لنا بغرفة الطعام فى (فينا) ، وحينما دخلنا وجدنا به كثيراً من المستخدمين وعدداً من الضباط بينهم جملة من الميرالات (١) الفخام الهيئة الضخام الأجسام ، وقد أخذ كل واحد من هؤلاء برأس خوان يحفُّ به جماعة من صغار الضباط الذين رأيناهم يُبدون أدبًا وخضوعًا ومَلَقًا (٢) لرؤسائهم ، ولقد استدعى دخولُنا إليهم استغرابَهم منَّا والتفاتَ أنظارهم إلينا ، حيث رأونا ونحن اثنان من الشبان قشيبا (٣) الملبس أنيقا الهندام لابسا (الطربوش)، فخلَّيناهم وقصدْنا طاولةً وجلسنا إليها ، ولم يكن تَعجُّبهم منا بأشد من غرابتنا من كيفية مأكلهم ، فلقد وقَرَتْ (٤) أسماعنا مِن صلصلة (الشوك) وقعقعة (٥) الملاعق كأنها الموسيقى فى نقر الطبول ورجْع (٦) الأبواق !!!

أمّا كل شيء هناك من طعام وآنية ، بل ونظام الخدم وأدائهم مهنتهم ، فكان رديئًا مبتذَلاً (٧) وليس أقبح من أنه إذ جاءَ قوم من الآكلين ولم يجد لهم أولئك المهنة محلاً خاليًا من الزحام زجوا بهم فى زمرة الجالسين ، فساهموهم فى أخْوِنتهم الضائقة بهم ! . ومن المضحك أن صاحب اللوكاندة كان يحاول التشبه بأصحاب الفنادق الكبيرة ؛ فيشقُّ صفوف القوم ويسعى بينهم عَلّهُ يتسمَّع شيئًا مما يُطريه (٨) به الحاضرون !! ومِنْ يُمْنِ طالعه

---

(١) الميرالات : أى من العمداء . (٢) ملقًا : نفاقًا .

(٣) قشيبا : جديدا . (٤) وقرت : أَصَمَّتْ .

(٥) قعقعة : ضجة . (٦) رجع : صدى .

(٧) مبتذلا : ممتهنًا . (٨) يطريه : يمدحه .

وحُسْن حظه أنه لم يَعُجَّ (١) بنا ولم يمرّ علينا ؛ فكان يسمع منا ما يأنس به سمعه ويرتاح له طبعه !!!

وإذ تحرَّج صدرى بما كنتُ أسمع من لَجَب(٢) القوم وطنينهم ، وما ألاحظه من أعمالهم ، فضلاً عمَّا أجده من رَداءَة المطعومات ، لم أر محيصًا (٣) من أن أترك غرفة الطعام وأغتدى(٤) إلى غرفتى بسلام ، عساى أجد من السكون والوحدة ما يريحنى من ذلك العناء ، ويُسَرِّى عنى بعضَ ذلك الحرج . ولما وافت الساعةُ الثانية ونصف تمامًا حضر المسيو بترويتش ، فتلقيتُه وسلَّمتُ عليه مصافحةً ، وقدَّمتُ له رفيقى محسنا بك ،ثم أزمعنا النزول وقد أطلعته على تلك البطاقة المبيَّنة فيها أسماءُ المواطن التى تخيرتُ زيارتها ، وعند ذلك نصح لى جنابه بأن نأخذ معنا ذلك (الترجمان) .

مشاهد المدينة

نزلنا وإذا عربة المسيو بترويتش فى انتظارنا أمام باب الفندق، وهى تشبه بعضَ الشبه عربات فينا وإن كانت لم تبلغ مبلغها من الحسن،ولم تأخذ ما أخذت تلك من الزخرف والرواء(٥) ، وسائقها ذو شاربين طويلين ، يقودها جوادان من الخيول المجرية مجذوذةٌ (٦) نصف أعرافها والنصف الآخر منفوش

---

(١) يعج : يمر .　　(٢) لجب : صخب .
(٣) محيصًا : مهربًا .　　(٤) أغتدى : أتوجه .
(٥) الرواء : الجمال .　　(٦) مجذوذة : مقصوصة .

على الأعناق . والعربة من طراز (فكتوريا) وهى ذات كرسى صغير أمامىّ غير أنه تجاوز بصغره المعهود فى سائر العربات ، فحاول المسيو بترويتش أن يجلس إلى هذا الكرسى ليأخذَ صاحبى مجلسنا من صدر العربة الرحيب ، غير أن محسنا بك سارع به ذوقهُ وسبق به أدبه إلى أن ركبَ ذلك الكرسى دونَ صاحبه المسيو بترويتش ، ولكنه جسيم وهو لا يبلغ مع ذلك شيئًا من الراحة على ذلك الكرسى الصغير .

جامع بيجوفا ومدفن خسرو بك

سارت بنا المركبة حتى جامع بيجوفا الذى جعلناه أوَّلَ محط لزيارتنا ، وهو وإن كان رسمه (الفوتوغرافى) أحسنَ من مبناه ، وصورته أتقن مِنْ مَغْناه ، غير أنه لا يسعنا أن ننكر نظافته ونقاءَه .

دخلناه فوجدنا معشرًا (١) من الصلحاء (٢) قائمين يُصَلُّون وآخرين يتوضأون من (حنفيات) كبيرة تتدفق بالأمواه بين الأغصان الملتفَّة والأشجار الباسقات . ومما راقنا (٣) من مشتملات ذلك المسجد قبلتُه ومنبرُه ؛ فإنهما على زخرف ورَواء متناسبَىِ الوضع متناسِقَى الصنع . والمسجد إذا جَنَّ الليل يُضاء بثُرَيَّات الكهرباء ، وهو مفروش ببساط نفيس جميل المنظر حَباه به(٤) سَرِىٌّ إسلامبولى .

ومن هناك توجهنا إلى مدفن خسرو بك ، فوجدناه منقوشًا (بالبوية) الجديدة ذات الألوان الجميلة ، وقد عُلّق على جدرانه

---

(١) معشرًا : جماعة .   (٢) الصلحاء : الصالحين .

(٣) راقنا : أعجبنا .   (٤) حباه به : وهبه له .

كثير من الألواح المكتوبة فى مواضيع شتى بخطوط متنوعة ، حتى إذا أخذنا مأربنا من التفرج عليه ، أجَزْنا الرجلَ الذى ألبسنا الخفاف المعَدَّة للسائحين الذين يزورون مثل هذه المعاهد الطاهرة وحبوْناه (بالبخشيش) .

مدرسة الشريعة

وركبنا قاصدين ذلك المعهد الذى يسمونه (بمدرسة الشريعة) .. ولقد كنا كَلِفينَ به (١) شغفين (٢) بزيارته ، حتى إذا وصلناه رأيناه كسراب بقيعةٍ يحسبُه الظمآنُ ماءً حتى إذا جاءَه لم يجده شيئًا ، ومَن كان يبصر فوتوغرافية هذا البناء وإحكام تصويره لا يشك فى أنه راسٍ(٣) راسخ سام سامق (٤) ألقى بقدميه إلى الماءِ وشمخ بأنفه إلى السماء ، ولكن رأينا – ولا حول ولا قوة إلا باللهَ – أنَّ « سماعك بالُمعيدىِّ خيرٌ مِنْ أنْ تراه » ، ومدرسة الشريعة أسمى من أن يكون هذا منظرها وذاك مخبرها !!.

وصلنا وإذا الجدار مرقوشٌ بالجير، وقد يكون على بعض الأبنية ناصعًا مصقولاً ، ولكنه هنـــا ليس بذى الصقل ولا النصوع ، ولم نجد عليه من شيات (٥) الزخرف إلا طبقةً خفيفةً مِن (البوية) الفاتحة اللون ، وهذا منظرهُ من الخارج ، على أننا لم نبتئس به ولم نيأس من أن نجد من حسن باطنه ما لا نأسف معه على قبح ظاهره، وإن كان الكتاب يُقرأ من عنوانه .

---

(١) كلفين به : متعلقين . (٢) شغفين : متشوقين .
(٣) راس : ثابت . (٤) سامق : مرتفع .
(٥) شيات : علامات .

دق البابَ (حسينٌ) الترجمان ، ففتحه رجلٌ بسنوى بدين، وتنحَّى جانبًا ، فدخلنا ساحة المدرسة ، فألفينا عرشها قائمًا على أقبية متوكِّئة (١) على عُمُد بشكل المساجد فى مصر ، وفى وَسَطِها فسقيةٌ بها عدة أنابيب مُعَدَّة لوضوء التلامذة إذا هُمْ شاءُوا .

ولقد كنّا رأينا المقصورةَ فى الرسم الفوتوغرافى كأنها واسعةٌ رحيبة ، ولكنْ – ويا للعجب – ألفيناها لا تبلغ مساحتها على الحقيقة أكثر من ستة أمتار طولاً فى خمسة عرضًا . ! أما تلك الحديقة التى زهتْ صورتها، فأفيكة (٢) غرَّر بها قلمُ الرسَّام ، والله يعلم أنه ليس هناك طَلْعٌ ولا زهر ولا غُصنٌ واحد يميل إذا هبَّتِ النكباءُ (٣) ، ويَميدُ (٤) إذا جرى النسيم !!!

ورأينا هناك مُصَلاةً فى صدرها قبلةٌ بسيطة . وبعد أن وقفنا ثَمَّتَ هنيهةً صعدنا إلى الطبق (٥) الثانى ، وأوَّلُ ما وقع نظرُنا على غرفة لأحد الأساتذة وأخرى لبعض التلامذة ، ثم عطفنا على الفصل الأول ، فداخلنى السرور حينما رأيت (التختة) مسطوراً عليها درسٌ عربى ، فوقفنا كذلك حينًا ، ثم قصدنا حمامات التلامذة التى كنّا نظن أنها واسعةٌ جميلة كافيةٌ

---

(١) متوكئة : مستندة .
(٢) أفيكة : كذبة .
(٣) النكباء : الريح .
(٤) يميد : يتمايل .
(٥) الطبق : الطابق .

لضروريات الاستحمام كافلةٌ لشرائطه [1] ، فوجدناها - فضلاً عن كونها لا تزيد على اثنين - أضيَقُ من صدر الأحمق وعيش المكدود ! وليس فيها إلا خَمْسُ حنفيات لا أحسَبُها تَفِي بشيء من ذلك الغرض ، فخلَّيناها وقصدنا غرفة الأساتذة التى هى منتداهم ومحضرهم [2] ، فألفيناها واسعةً جميلة ، غير أنّا رأينا فيها ما عجبنا منه ، وهو ثلاث خرائط مرسومةٌ عباراتها باللغة الألمانية !! ومنها دخْلنا إلى حجرة ناظر المدرسة ، وفى هذه قدَّم لنا البروغرام [3] (نموذج الدروس) فإذا هم يدرسون - اللغة العربية، ومجلة الأحكام ، والشريعة الإسلامية ، واللغة البوسنوية والتاريخ ، ولكنَّا مع الأسف وجدناها ألفاظًا لا نَصيبَ لها من المعانى ، ودَوالَّ لا حظَّ لها من المدلولات ، وحيث كنتُ أميل إلى أنْ أضُمَّ إلى بيان رحلتى شيئًا كثيراً من معلوماتى عن العلوم التى يتدارسونها هناك ، فرأيتُ أنَّ أكبر معوان على ذلك اطّلاعى على كتبخانة [4] المدرسة التى كنت أظنُّ أنه قد أدرج فى مطاويها العدد الكثير من المصاحف القديمة الخطوط ، والكتب المتنوعة الفنون ، والأسفار [5] التى لم تكن فى بلادنا من مواد التاريخ

(١) كافلة لشرائطه : موفرة لمتطلباته .

(٢) منتداهم ومحضرهم : مكان اجتماعهم ولقائهم .

(٣) البروغرام : المنهج .   (٤) كتبخانة : مكتبة .

(٥) الأسفار : الكتب الضخمة ،المراجع .

والأدب وعلوم الأخلاق والفقه الإسلامى وعلوم الحكمة . ولكن ماذا رأيتُ ؟ رأيت أن مكتبة المدرسة لا تضم بين جوانحها أكثر من مائتين وخمسين كتابًا كلها من المؤلفات الحديثة ، وهىء وإن كانت تؤدِّى تلك المواد المسطورة فى البروغرام سطحية بسيطة ؛ فهى – ولا مرية (١) –غير كافلة بتنمية مداركهم وتبحُّرهم فى العلوم وتعمقهم فى المباحث بالقدر المطلوب .

الكنيسة الصربية

ولما أمضينا هنالك حينًا من الزمن ، ودَّعنا المدرسة وآلَها ، ومنها ذهبنا إلى الكنيسة الصربية القديمة ، فوجدنا بها ألواحًا بديعة النقوش مزينة بأنواع (البوية) الجميلة الشكل المتقَنة الصنع ، حتى إذا دخلناها نَضَوْنا (٢) طرابيشنا عن رؤوسنا رعايةً لإحساس المسيو بترويتش ووجدانه الدينى ، وأىُّ كلفةٍ علينا فى مثل هذا العمل وفيه غبطة لصاحبنا وكرامة لجانبه !؟ ولقد وجدنا الكنيسةَ غاصَّةً بجماهير الناس ، وجُلُّهم من الفلاحين بين رجال ونساء يلبسون جميعًا ملابس يوم الأحد التى يعتنون عادةً بتنسيق نظامها وتنميق هندامها . وكانوا يتواردون فَرادَى على الرسوم والتماثيل المقدَّسة عندهم ، ويتناوبون تقبيلَها والتمسُّحَ بها الواحد تِلْوَ الآخر ! وما بصر بنا خادمُ الكنيسةِ وميَّزنا من بين أولئك القوم بأزيائنا وملابسنا حتى سعى أمامنا يشق غمار

---

(١) لا مرية : لا شك . (٢) نضونا : خلعنا ونحينا .

المحتشدين ويُخلى لنا بينهم الطريق ، على أن مثل ذلك غيرُ سائغ(١) فى معابد المسلمين ،

أسواق سراجيفو

حتى إذا جُلنا جولات فى أطرافها، وتشبعت عيوننا من مناظرها ، ووقفنا على كل ما فيها ، خرجنا قاصدين (بَزار) الذى ألفيناه بسيطًا لم يبلغ مبلغ الأسواق المهمة ، وهو شبيه بخان الخليلى فى مصر ، دخلنا ، وإذا مَسْرَبٌ (٢) ممتد ولم يكن على جانبيه إلا الحوانيت التى يباع فيها الجزم وبعض الأحذية الحمر الأدم (٣) (ساربك)، ما بين بسيطة الشكل ومزخرفة الهيئة مزدانة الأديم ، وفى جانبه مَسْرَبٌ آخر لتشغيل الآنية النحاسية والصوانى وفناجين القهوة والصحون وما أشبه ذلك ، ولم يكن بين تلك المصنوعات ما يلفت نظرنا ويستجلب رغبتنا إلا زهادة الأثمان وهوادة التجار وعدم طماعية (٤) نفوسهم ، ووجدنا هناك من المنسوجات والحرائر المطرَّزة ما لا تذهب بنا العناية به والاستحسان له أن نفصِّله للقارئ تفصيلاً ، والذى كان يروقنا وينال غايةَ إعجابنا وسرورِنا أنه مكتوب على ناصية كل حانوت باللغة التركية (يعيش السلطان) ،

ومن هنا ذهبنا إلى الكنيسة اليونانية القديمة التى كانت موجودةً قبل احتلال الأتراك لتلك البلاد ، وأصبحت اليوم سوقًا

---

(١) سائغ : مقبول ،   (٢) مَسْرَب : ممرّ ،
(٣) الأدم : الجلد ،   (٤) طماعية : جشع ،

حافلةً بالمتاجر آهلةً بالبيع والشراء ، وهى شبيهة أيضًا (بخان الخليلى) ، غير أنها لم تصل إلى غناه ، ولم تبلغ مبلغ ثرائه ، ولم يكن فيها من حركة الأخذ والعطاء والبيع والشراء ما هو هنا فى (خان الخليلى) . وأكثرُ تجار هذا (البزار) من جماعة الإسرائيليين الذين يجتلبون بضائعهم من (فينا) بأثمان زهيدة . وأغلبُ تلك البضائع من الأقمشة الجميلة الصبغة الواضحة الألوان، وجواربٌ ومناديلٌ على أضْرُبٍ [1] وأشكال . وإقبالُ الفلاحين هناك على تلك الأشياء عظيم ، وابتياعهم لها كثير . وإن أولئك التجار اليهود يُظهرون لزبائنهم من البشاشة وطلاقة المحيا والملاطفة فى القول والمسالمة فى المساومة وأنهم فى خدمتهم وطوع إشارتهم ما يبعث بالنشاط ويدبّ بروح الإقبال عليهم فى أعراق المشترين (وكذلك يفعل التاجر الحكيم) . وأهمُّ متجر بين تلك الحوانيت لرجل بوسنوى مسلم وهو يبيع بعضَ العُروض[2] التى كانت متداولَةً شائعة بين الناس قبل ظهور التمدن الحديث ؛ مثل أغطية الترابيزات المزركشة ، والفوط المطرَّزة بالقصب ، وما يشبه ذلك . وإنه مع الأسف لم يصبح بين الناس من يهتم باقتناء مثل هذه الأشياء التى أضحتْ من قبيل الآثار مع كونها لا تزال للآن تَنُمُّ على بهجتها وتَشُفُّ عن حُسْنها ورَوائها وسطَ هذه المنسوجات الحديثة العهد .

ولولا أنى كنت فى مؤَخرات[3] سياحتى وأخشى نفاد ما

---

(١) أضرب : أنواع .   (٢) العروض : السلع .

(٣) مؤخرات : أواخر .

بقى معى من النقود – وكثيراً ما يقع مثل ذلك للمسافر مَهْما عظمت ثروته – لكنتُ تزودتُ من هذه الأشياء بالقدر الكثير ؛ لعلمى بأن الرغبة ستتجه فيما بعد إليها لعدم وجودها . وقد نَمى إلىَّ أن بعض عائلات المسلمين وبعضاً من الصربيين هم الذين يشتغلون هذه الأشياء الدقيقة التى بلغت من الإتقان إلى ما يُستدَلُّ منه على حُسْنِ الاعتناء بها ، وهى أحسن بكثير مما يُرَى عندنا من قبيل هذه الأصناف .

وما زلنا كذلك نتفرج على تلك العروض حتى أخذنا مَؤُونتنا من انتقادها ، فبرحنا ذلك السوق وقد اضطررنا بسبب ضيق الأزِقَّة لأن نَسْعَى مشاةً بين تلك الأماكن ، على أنه قد يدرك الماشى ما لا يدرك الراكب . ومِن ثَمَّ أرسلنا بالعربة إلى الفندق . وفيما نحن سائرون فى طريقنا مشيًا إذ صادفَنا محلٌّ لمبيع الأسلحة، فقصدناه لعلنا نعثر فيه على شىء من السكاكين الأرناؤودية ، ولكنَّا لم نجد إلا ثمانية مسدسات بالَغَ الصنّاعُ فى نقش مقابضها الفضية ، وخمسَ (يتجانات) ، وأربعة أسياف ماضية الحدّ مصقولة الفرند[1] جميلة الطبع متقَنة الصنع ، ولم أصْدِف[2] عن ابتياع شىء منها إلا مَظَنَّةَ أن أجد فى محل آخر ما هو أجمل شكلاً وأتقن صنعًا .

مدينة هيشا

ثم رجعنا إلى الفندق وهناك سألَنا المسيو بترويتش عما إذا

---

(١) الفرند : صفحة السيف . (٢) أصدف عن : أعرض عن .

كنا نرغب فى زيارة (هيشا) وهى موطن الحمّامات التى عنيت بها الحكومة وبنتها على مصاريفها[1] بأمر الحاكم الكونت (كلى) ذلك الرجل النابغة الذى كنت أُبَجِّلُه وأحترمه كثيراً بسبب ما يُعْزَى إليه مِن أن جميع المرافق والإصلاحات التى حدثت فى بلاد البوسنة إنما جرت على عهده وكانت مشمولة بهمَّته ملحوظةً بعنايته. وكنت أعرفُ من قبل أكبرَ بَنيه وبنى إخوته .

ولقد كنت غير مرتاح الضمير فى « سراجيفو » ؛ حيث لاحظتُ فيها أن الأهالى المسلمين وسراة الصربيين كانوا لا يحفلون برجال الحكومة ولا يقيمون لهم وزنا . وأخبرنى صديقى المسيو بترويتش بأن المسلمين وأولئك الصربيين متحرجو[2] الصدور من حكومتهم ؛ إذ يرون أنها تسىء السلطة بينهم وتعاملهم بالشدة والقسوة ، ولذلك فالمسلمون يَرُومون أن ينضموا تحت لواء الأتراك ، والصربيون يرومون إلى أنْ تَسوسَهم الحكومة الصربية ، وما أظن إلا أن ذلك ناتج من حصر سلطان الحكومة فى بلاد البوسنة ، وقَصْر نفوذها عليها ؛ لأنها غير قادرة بالطبع على توزيع سلطتها فى أطراف البلاد وتقسيمها على جميع أجزاء المملكة . وأنَّ تعصب الكنيسة لَممَّا يزيد فى نَفار[3] أولئك الأهالى ويثير من غضبهم على حكومتهم ؛ إذ قد بلغ من فعالها وتعصبها الدينى أن تدعو من يقع تحت أيديها وتجتذب مَنْ تظفر به من

---

(١) على مصاريفها : على نفقتها .

(٢) متحرجو الصدور : متضايقون .

(٣) النفار : الحِرَان والخصام .

بنات المسلمين والصربيين لاعتناق دينها والتمذهب بمذهبها ، وسأذكر إن شاء الله في خلال هذه الرحلة ما يَحْضُرني من الملاحظات على تلك الكنيسة ،

ثم وجدنا في هذا اليوم من سعة الوقت ما يكفينا لزيارة « هيشا » ، فلبينا طلبة(١) المسيو بترويتش ، وقطعنا المسافة إليها في زهاء الثلاثين دقيقة ، وقد وافق وصولُنا وصولَ قطارٍ مشحون بالكثيرين من مستخدمي الحكومة والضباط على اختلاف درجاتهم وتفاوت مراتبهم ، ورأينا كما يُرَى عادةً في كل الجهات احترامَ صغار هؤلاء لكبرائهم وتوقيرهم إياهم ليحرزوا(٢) رعايتهم وينالوا رضاهم ، ثم رأينا هناك احتفالاً خيريًا أقامته جمعية السيدات تسليةً وإيناسًا للكونتيسة « كلي » التي يسميها حزب المعارضين بنائبة الملكة ، ولا أظن إلا أن تلك الأموال التي تُجمَع من مظاهر هذا الاحتفال سيخص مصرفها بالفقراء البائسين من الكاثوليكيين ، وما كنتُ لأجد من نفسي جنوحًا(٣) للذهاب إلى ذلك المحفَل ، فأضربتُ عن مشاهدته ، ورُحْتُ أُمْضي ورفاقي ما بقي من الوقت في زيارة الحمامات التي حينما أشرفنا عليها وجدنا بعضها « طينيًا » والآخر « كبريتيًا » ولكننا لم نجد في هذه رائحة الكبريت شديدةً كما هي في غيرها ، ويُستدل من ذلك على أن مياه تلك الحمامات لم تبلغ في جودتها ما بلغت مياه الحمامات في حلوان ،

---

(١) طِلْبة : طلب ورجاء ، (٢) ليحرزو : ليحوزوا ولينالوا ،
(٣) جنوحا : ميلا ورغبة ،

وفى وسط حديقة الحمامات يتدفق ينبوعُ ماء كانت درجة حرارته ٦٠ سنتغراد ، وهنالك رأينا الناس يتهافتون على شربها ، فعمدتُ إلى تقليدهم حيث شربتُ منها ، ولكننى من شدة ما كنت أحِسُّ من حرارتها لم أميز لها طعمًا ... وحين انتهينا إلى الضواحى رأينا حديقةً كبيرةً تبلغ مساحتها ثلاثة أفدنة ، وشاهدنا ثمت فى وسطها « قفصًا » مسجونا فيه دبتان صغيرتان كانت رائحتهما غايةً فى الكراهة ، فتركنا الحديقة .

وعندما دانينا معهدَ الاحتفال الذى أسلفنا ذكرَه عرفتُ لأول نظرة أرسلتُها أنّ سَواد المحتفلين من أرباب الوظائف الرسمية وذلك مما يؤيد خبر صديقى المسيو « بترويتش » . وإذ كنا سائرين فى طرقات هذه البلد رأيتُ عن بُعْد فندقًا عظيمًا يدلُّ ظاهرُه أنه مُعَدٌّ لراحة المسافرين ورفاهيتهم ، ويعلم الله إنْ كانَ باطنُه كذلك أوْ لا لأنى لم أدخله ... ولما اغرورقتْ مقلة[١] السماء ركبنا العربة وأزمعنا الرجوع إلى « سراجيفو » ، فأخذت الخيل تَعدو عَدْوَها ، حتى إذا اقتربنا من الفندق الذى نحن نُزولٌ به بصرنا بمحلّ صغير فيه بضائع شرقية جميلة ، وعندما هممتُ بالنزول للتفرُّج على هذه العروض وابتياع ما يروقنى منها نصح لى صديقى المسيو « بترويتش » بأن لا أنزل ولا أساوم فى شيء من هذا المحل قائلاً إن صاحبه يهودى ماكر يبتز نقود الشارين بحيلته وختله ولا يبيعهم بضائعه إلا بأثمان باهظة . غير أن تلك النصيحة لم تكن لتثنى عزمتى ولا لتنقضَ زماعى[٢] . فنزلتُ ،

---

(١) اغرورقت : امتلأت ، مقلة : عين . (٢) زماعى : عزمى .

وكان الليلُ قد أقبل وألبسَ الجوَّ جلبابه الحالك ، فأوقد ربٌّ الحانوت لمبةَ (بترول) كبيرة ، ووجدتُ أنَّ أكثر تلك المعروضات قد رأيتُها من قبل فى معرض باريس . وحينئذٍ سألته إذا كان يوجد لديه ملابس جميلة ؟ فأجابنى بأن واحداً من الناس أوصاه (ببدلة) تساوى مائة وخمسين (فولورينو) ، وأخذ يروِّج بضاعتَه بقوله إنها فرصة ثمينة ! وإن شراءَ مثل هذه (البدلة) صفقةٌ رابحة ! وأظهرَ لى أن فى مُكْنَتِه إحضارها فى مساء هذا اليوم ، إلا أنه لم يَفِ بَعْدُ بوعده .

ثم انثنينا إلى الفندق ، وهناك دعوت المسيو « بتروِيتش » لأنْ يتناول معنا فنجاناً من الشاى . وبعد ذلك ودَّعَنا على نية أن يَؤُوب إلينا فى يوم الغد . ثم نهضتُ إلى غرفتى لأكتب خطاباً أرسل به إلى (باريس) ، وشرعتُ بعد ذلك فى تسطير رحلتى مصمماً على أن أقدِّم أولَ نسخة منها للجناب العالى الخديوى ، وما زلتُ أترسَّل(١) فيها حتى الساعة الثامنة . وحينذاك أدركنى الملل من التحبير ، فطويتُ القرطاس ودَقَقْتُ الجرسَ دقَّةً لأدْعو الخادمة - حيث أن خدم الفندق من النساء - والعادة فى ذلك الفندق أنه إذا أريد استدعاء خادمة يُدَق الجرس مرة واحدة ، وإذا أريد نداء البواب يدق مرتين ، ولا يتوهمن القارئ أنَّ ضيف هذه اللوكاندة بين الجوارى (٢) الكُنَّس والخُودِ الآرام(٣) ، بل ليعلم أنه

---

(١) أترسل : أتمهل . (٢) الجوارى الكنس : أصل التعبير ورد فى القرآن آية رقم ١٦ سورة التكوير وأشير به إلى النجوم التى تظهر ليلا وتختفى نهارا ، أما فى السياق فالمقصود بها الفتيات المستترات .

(٣) الخود : جمع خَوْد وهى الشابة الناعمة الحسنة الخلق .
الآرام : جمع إرْم وهى البارزة .

بين سَعالى شُيَّب (١) ، دُرُدِ الثنايا (٢) هنَّ فى سن اليأس أو أربَيْن(٣) على عمر الجدَّات !! . . .

جاءَ وقت العشاء ولم تَرُقْ لدىَّ فكرة معاودة بهو الطعام ، وحيثُ أن فنادق البوسنة لا تحتوى إلا على عدد قليل من الغرف ليس بينها شىء من (الصالات) أمَرْنا بإحضار الطعام إلى غرفة النوم التى اضطرتنا هذه الأسباب إلى الأكل فيها ، وبعد ذلك عُدْتُ إلي كتابة رحلتى ، غير أنى لم أصبر طويلاً لعدم تدربى على مثل هذا العمل ، ولم أجد أحسنَ مِنْ أن أضطجع على سريرى ، وخصوصاً أنى كنتُ محتاجًا إلى الراحة عقب يوم طويل أمضيناه فى عمل كثير وتعب كبير ، وكنتُ أحْسَبُنى إذا أنا أضطجعتُ أنال راحةً ما كان أحوجنى إليها وأن أنام بمجرد الهجوع، ولكن مع الأسف كان السرير حافلاً بسكانه ، وما كان أحفاهم بمنزل ضيوفهم وأكرمهم لمثوى جيرانهم ! فلقد حسبتُ أنهم كانوا كَلِفين بضيافتى عندهم ، مولَعين بمجاورتى إياهم ، ومن أجل ذلك لم يزايلنى السُّهاد ولم تذق مقلتاى لذة الإغماض ، وما كان أشبهنى بذلك الفتى الأعرابى الذى أصبح يتشكى لأبيه وَخْزَ البَقِّ وأفاعيل الأرق حيث يقول :

يا أَبتا أرَّقَنى القذان (٤)   فالنومُ لا تألفُهُ العينان

---

(١) سعالى شيب : عجائز شمطاوات .

(٢) درد الثنايا : منزوعة أسنانهن .

(٣) أربين على : جاوزن ، زدن على .

(٤) القذ : البرغوث .

وماذا عسى أن يصنع مثلى مهما احتاط لنفسه وارتاد أحسنَ المواطن وأرفَعَ الفنادق إذا كان أعلاهنَّ قدْرًا واغلاهنَّ قيمةً فى بلاد البوسنة لا تزيد أجرته فى الليلة عن اثنين ونصف من (الفولورينات) وهى قيمة لا يبتئس بها ابنُ سبيل ولا تغلق بابًا فى وجه إنسان حتى تكون منازل الكبراء منيعةً عن كل نزيل، لا ممنوحة كما هى لكل قبيل ! .

ثم قمت فى باكورة الصباح لأقضى الحاجة البشرية . . وكان المَحَلُّ فضلاً عن كونه قليلَ الضياء حديدَ الرائحة الكريهة التى ربما أفضَى فرط كراهتها إلى الاختناق ، ومما زاد الطين بلة أن (سيفون) المحل كان فاسداً فلم أستطع به دفع شيء من ذلك الأذى ، وقد جعلوا بدل أن يستعملوا الورق المعتاد استعماله فى مثل ذلك أن يستعملوا الإعلانات القديمة ! وتلك لَعَمْر الله أمورٌ لا طاقة بها لمن لم يتعوَّدها ، ولكن لما كنتُ بسبب كثرة الأسفار قد تعوّدت بعض التعوُّد مثل هذه الأشياء الغريبة لم يَسَعْنى إلا الصبر والسكوت عليها ، وبعد قضاء ما يلزم عادةً من النظافة ونحوها تناولتُ طعام الفطور وخرجتُ من غرفتى إلى غرفة محسن بك ، وفيما أنا فى الطريق قابلنى الإسرائيلى صاحب الحانوت الآنفُ ذكره ومعه (البدلة) التى كان وعدَنا بإحضارها؛ فأشرتُ إليه بأنْ يدَعها فى غرفتى ووعدتُه بابتياعها إذا هى وافقتنى ، فما تركها وانصرف إلى سبيله حتى حضر (حسين الترجمان) الذى أفهمنى بأن صانع هذه (البدلة) إنما هو رجل مسلم من سكان تلك الجهة ، وأنه فى إمكانه أن يشتريها منه

مباشرة بنصف الثمن الذى طلبه اليهودى ، فلم أرَ إلا أن آمر محمداً أغا بأن يردَّ إلى اليهودى بضاعته ، وفى الوقت نفسه ذهب حسين إلى صاحب (البدلة) المسلم ليوعز إليه باستردادها من ذلك اليهودى الخاتل ، وأن يشتريها منه رأساً . ثم لم تمضِ ساعة حتى جاءَ صاحب (البدلة) بها مبيناً أنه مستعد لبيعها بأى ثمن كان ، فنقدتُه سبعة جنيهات ولبستُها أمامه ليستظهر عيوبها التى وعد بإصلاحها وإعادتها فى الساعة العاشرة العربية .

وبعد هنيهة حضر المسيو « بترويتش » وكنت وقتئذ مشتغلا بتحرير بعض الخطابات ، فكلفتُ محسناً بك بمقابلته ليعتذر عنى إليه ، وأخذت أفكر فيما يلزم شراؤه لتلك البدلة من نحو حزام وحذاء وجورب ملون من صنعة الفلاحين هنالك . ورأيت أن أنوط هذه المأمورية بحسين الترجمان الذى لا أظنه رجع من هذه الغنيمة بلا جدوى . وعندئذٍ تذكرت الأسلحة ، ولم يكن ليعنينى شراء البدلة وأدواتها بأكثر من شرائها ؛ إذ أنها من أهمّ الأشياء عندى وأحب الأمور إلىَّ ، فأرسلتُ الترجمان ثانيةً ليشتريها من ذلك (الدكان) الذى أسلفنا أنه قريب من الفندق ، فعاد يصحبه صاحب (الدكان) ومعه جملة من الأسلحة العتيقة ، ولم يكن ذلك المتَّجِر بلابس للطربوش فظننا أنه مسيحى ، فسأله محمد أغا عن أثمان مبيعاته التى أحضرها وأخذوا يساومونه فيها رجاء أن يخفضوا من أثمانها ، ولكنى لِما رأيتهُ مِن حال الرجل وقلة بضاعته مما كان يستدعى المرحمة به كنت أود أن لا يشدِّدوا عليه ذلك

التشديد ، ثم سأله محمد أغا عن دينه ، فدهشنا كثيراً عندما قال إنه مسلم !! فقلنا له : إذا كنتَ مسلماً فلماذا لا نراك تلبس الطربوش على عادة المسلمين ؟ فقال : إن (الكلبك) الذى أنا لابِسُهُ أهداه إلىَّ أخى الذى هو الآن مــلازم فى أورطة (الارتغلول) .

وحيث كنتُ أرغب فى انتفاعه أردت أن أشترى شيئًا من بضاعته ، ولكنْ لما كانت الأسلحة التى جاءَ بها إلينا كبيرة ولا حاجة لنا بها سألته : هل يوجد عندك أسلحة صغيرة ؟ فقال : لا ، ولكنى أعلم أنَّ واحداً من البكوات لديه (يتجان) صغير فإن شئت أتيتك به » ، فرغبنا إليه فى ذلك ، ثم ما لبث أن جاءَ ومعه ذلك السلاح الذى وافق غرضى وطابق رغبتى ؛ إذ كان ماضى الحد دقيق الصناعة قديم الاختراع ، ولذلك صممت على ابتياعه منه حالاً موقنًا بأنى عثرتُ على ذخيرة ثمينة وكسبتُ صفقة رابحة ، ونقدته فى ثمنه أربعة جنيهات فأخذها راضيًا شاكراً ، على أننا لو شددنا عليه شيئًا لقنع بأقل من ذلك ، وأما محسن بك فقد اختار لنفسه (يتجانًا) بلغاريًا ، وشراه بثمن بخس دراهم معدودة ، وهو وإن لم يكن مزخرَفًا فى الظاهر إلا أنه كان متينًا فرندَه (١) ، ماضيًا غراره(٢) ، لينًا متنه ، حتى إذا لويناه ما شئنا انثنى حتى التقى طرفاه ، وإذا نحن أفلتناه عاد مثقَفا (٣) مستقيماً كما كان .

---

(١) فرند : سلاح السيف . (٢) غراره : حد السيف .
(٣) مثقفًا : مستويًا .

ثم إنّي وصاحبي أردنا أن نُظهر لهذا الرجل شيئًا من المهارة والحذق فيما نعلم من هذا القبيل ؛ أما محسن بك فقد عمد إلى ما اشتهر به من كسر العصي ونجح في عمله غاية النجح ، وأما أنا فقد جرَّبت سلاحي الذي اشتريته في قطع تفاحة ملفوفة بمنديل من الحرير وشقٍّ أغصانٍ قائمةٌ أطرافها على حافتي فنجانين من فناجين القهوة . فدهش الرجل من هذا العمل وكاد لا يصدِّق بما حصل ، وتهلل وجهه وأخذ منه الإعجاب كل مأخذ ؛ إذ رأى أن القائمين بهذا العمل الحاذق هما من أبناء دينه وملته !!! .

وكان هذا الرجل مصابًا بانتفاخات وأورام أشفقنا عليه منها، فنصحْنا له بأن يستطبَّ لدائه ويُسرع بإعمال عملية ربما يكون من ورائها خَلاصُه من هذا الداء العُضال ، وإنها عليه لهينة سهلة . فأخذ يبين لنا سبب تلك الإصابة؛ وهو أنه وقت حرب الصرب كان يتصبَّب في يومٍ عَرقًا وشرب وهو على تلك الحال من ينبوع ماء باردٍ كأنه مثلوج ، فأصيب بتلك الإصابة الشعواء ، وقد عرض نفسه على أطباء « فينا » الذين شخَّصوا داءه وأخبروه بأن في (العملية) خطرًا ربما أفضَى إلى الموت ؛ إذ أن في تلك النقطة عِرْقًا متصلاً بالمخ . ولذلك استسلم للداء وقنط من رحمة الدواء . وعندئذ أسفنا أسفًا عظيمًا لعدم وجود الدكتور الشهير « زنباكو » باشا ؛ لأن في إمكانه أن يبحث في هذا المرض بحثًا دقيقًا بما أوتيه من الحكمة والخبرة التامة ريثما يقف على حالته ويرشده إلى خير علاج .

فجاوز الرجل حظيرتنا وخرج شاكرًا مثنيًا . ثم طلبنا الغداء، وعندما علمتُ أن طاهي الفندق مَجَرى طلبتُ إليهم أن

يؤْتونا (بجولاش) متحققًا أن طعامًا واحداً تلتذُّ به النفس ويرتاح له الذوق خير من تلك الصحاف الكثيرة التى نَبَتْ عنها(١) طباعُنا فى الأيام الخالية .

وبعدما أخذنا غايتنا من الطعام رأيتُ أن أسترسل فى كتابة رحلتى ، ولكن عرضتْ لى هواجس تُعارض أفكارى الأولى ، وترددتُ بين أن أكتب، وأى فائدة لى من وراء الكتابة التى يلزم منها أن أتعرض لأمور سياسية !!

على أنى أكلِّف نفسي أن أكتبُ بلغة لا ألِمُّ بها تمام الإلمام ، ومن ثَمَّ يكون عملى غرضًا لألسن الناقدين ؟ أو أمسك ؟ . وكان حقًا علىَّ أن أوقف أصدقائى على تفصيلات سياحتى ، إذ كان ذلك يهمُّهم كثيراً ، وقد كنت أرجو أنَّ الجناب العالى الخديوى يوافقنى على هذا العمل ، ويحثُّنى عليه ، ويستنهضنى إليه ، فاستخرتُ اللهَ وطردتُ وسواسَ التثبيط ، وأمطْتُ عن نفسى رداءَ الكسل ، وغلبتْ علىَّ فكرة الهمَّة والعمل ، ونهضتُ لأكتب ما شاءَ اللهُ أن أكتب ، وإذا بالمسيو « بترويتش » الذى وافى مع الميعاد تمامًا .

أنتيكخانة سراجيفو

فأخذ كلٌّ منا عصاه بيده ، ومضينا لزيارة ما كان فاضلاً(٢) مما يستحق الزيارة ، وفى عزمنا أن نبدأ بزيارة الأنتيكخانة الأهلية ، وكانت عربة المسيو بترويتش (الكومبيل) فى انتظارنا ، وحيثُ

---

(١) نبت عنها : أعرضت : لم تألفها .

(٢) فاضلاً : باقيًا .

ألفيناها أصغرَ من العربة (فيكتوريا) التى ركبناها أول مرة رأينا أن نُمضى غرضَ محسن بك ، واستأجرنا عربة لاندوه كانت نمرتها(١) ، وسرنا قاصدين إلى الأنتيكخانة حتى ألقى الحوذى عصاه أمام بيت يظهر عليه أنه من منازل السكنى ذوات الغلة . فنزل أولاً المسيو « بترويتش » وقرع الباب ، فلم يجاوَب هذا القارع إلا بنبيح كلب مزعج ، فظهر أننا أخطأنا دور الأنتيكخانة ولم نُصِبْ بابها ، وعندئذ طلب المسيو بترويتش أن ننتظره فى فسحة المنزل وسارع إلى عروج [١] السلم ليتحقق ما إذا كانت الأنتيكخانة مغلقة أو مفتحة الأبواب ، فرآها لحسن حظنا مفتوحةً، وما طلب منا أن نصعد إليه حتى أجبناه بكل همة ونشاط .

صعدنا ، وإذا المتحف فى الطابق الثانى ، وفى مدخله يرى الإنسان صوراً وتماثيل من الشمع وقد ألبسوها ملابس مختلفة ، وعلى كل واحد منها بطاقة تدل على تاريخ ما عليها من اللبوس[٢] ، والذى لفتَ أنظارنا أكثر إنما هى أردية السيدات المسلمات سكان (مسطار) ، إذ كنَّ مع لبس الفرجية يضعنَ على رؤُوسهنَّ من ذلك النسيج الأسود ما يشبه شعار الراهبات ، وعلى وجوههنَّ براقع ساترة لكل الوجه بحيث لا يرى المتبصر شيئًا مما يليها أصلاً .

ثم توجهنا إلى الجزءِ المختص بالأشجار ، وأحسنُها كان معروضًا فى معرض باريس ، ومن ثم ذهبنا للجزءِ المختص بالنقود

(١) عروج : صعود . (٢) اللبوس : أى الملابس .

والمسكوكات . ثم رأينا فى صناديق من الزجاج بعض الأعلام والبنود التركية والبوسنوية القديمة من عهد الاحتلال التركى لتلك البلاد ، وكان على تلك البنود عبارات مرسومة وكتابات مرقومة كما هى العادة . ومما عجبتُ له أنى رأيت أمراً من بعض قدماء السلاطين لحاكم البوسنة يأمره فيه بالسير على بعض القوانين ! وهذا الأمر مكتوب على ورق سميك ، وهو وإن كان بعيد العهد قديم التاريخ إلا أن ناظره لا يشـــــك فى أنه جديد لم يَخْلِق (١) ولم يتبذل ! . .

معمل الأَبْسِطة

ولما أتممنا زيارتنا لهذا المتحف قصدنا معمل الأبسطة الذى كنتُ مسروراً من توجهنا إليه ؛ حاسبًا أن أشترى منه شيئًا لمنزلى، ولكن خالفنى حسبانى حينما قال لى المسيو « بترويتش » إن تلك البُسُط تباع بقيم باهظة وأثمان فاحشة لأن الحكومة خصَّت نفسها باحتكار هذا الصنف ، وهم يبيعون المتر المربع منه بخمسين (فلورينو) مع وجود مثلها فى أزمير ولا يتجاوز ثمن المتر فيها ثمانية فرنكات !!! .

أما رئيس المعمل فيزعم أن غلاء القيمة وعلوَّ الثمن إنما هو ناتج من زيادة العناية بتلوين الأصواف ؛ لأن الألوان التى يصبغون بها فى ذلك المعمل مأخوذة من مواد طبيعية وليست هى من الألوان الصناعية (كالانيلين) وبهذه الوسيلة تُحفظ بهجة الألوان، وتصان جِدَّتها على مر الأزمان .

---

(١) يخلق : يبلى .

أما المعمل فمركَّب من أربع غرف ، وفى كل واحدة منهنَّ نحو الخمسين من الصربيات . وأما من جهة العدَد والآلات فهى عادية . وكان فى جملة ما يشتغلونه السجاجيد العجمية . وقد رأيتُ عشرين من أمهر العاملات يشتغلنَ طنافس الحرير .

معمل التبغ

وبعد ما زُرنا قاعات المعمل ووقفنا على كل ما فيها ، وجدنا أن الأسعار كما أسلفنا باهظة ، فلم يتسنَّ لنا أن نشترى من هنالك شيئًا ، فغادرنا ذلك المعمل واقتفينا فابريقة التبغ (الدخان) التى تبعد عنه نحو خمس دقائق، وعندما وصلنا اضطر المسيو « بترويتش » إلى أن يَدَعْنا ويذهب ليستأذن لنا رئيس (الفابريقة) فى الدخول ، فدُعينا إلى الدخول فى غرفة ذلك الرئيس الذى رأيناه شيخًا يناهز الخمسين من عمره . على أن هذه السن لم تُثْنه عن الخيلاءِ بنفسه والإعجاب بصناعته التى وهم أنه أمهر إنسانٍ فيها . ولقد استقبلَنا هذا الرجل بالحفاوة والتعظيم وأبَى إلا أن يُجْلِسَنا إلى طاولته الخاصة وقدَّم لكل منا سيكاراً . وابتدأَ الحديثُ يجرى بيننا ، وكان خاصًا بالدخان والسجائر . فزعم هو أن سجائر البوسنة خيرٌ من سجائر مصر فى الإتقان ودقة الصناعة ! وعزَّز مُدَّعاه بأن نفراً من تجار السجائر فى مصر زاروا مصنعه وامتدحوا سجائره وأثنوا على دخانه . وإنى وإن لم أكن من شرَّاب الدخان ، ولا بالذى يميز بين طيِّبه ورديئه ومستملح السجائر ومستقبحها ، غير أنه لم يسعنى الإذعان لتلك الدعوى ولا السكوت عليها ، وأنا أعلم من جهة أخرى أن سجائر مصر

هى أشهر سجائر العالم . فقلت له : إذا كانت السجائر المصرية هى أجود سجائر العالم وأشهرها أفلا تكون على الأقل أحسن من سجائر البوسنة ؟ أمّا دعوى كون جماعة من تجار مصر امتدحوها فشهادتهم إنما تفيد مَحْضَ حسنها وفضلها لا أحسنيتها وأفضليتها ! .

حتى إذا أخذ الحديث مأخذه أومأ إلى وكيله وأرفقه بنا ليكون دليلاً لنا فى هذا المعمل ، وكان ذلك الوكيل باشّ الوجه طَلْق المحيا ، فانطلق بنا ، وأول ما رأينا محل الدخان وهو ورق ، حيث كانوا ينقدونه ليميزوا الخبيث من الطيب . وكان ذلك الدخان على صنفين ؛ أحدهما أصفر رفيع خشن نقى وهو وارد (هرسكوفين) من بلاد الهرسك ، والآخر شديد السمرة وهو أكثر خشونةً من الأول ، وهذا وارد من بلاد البوسنة . حتى إذا أتموا نقض تلك الأوراق وأكملوا نقدَها حملوها إلى قاعة ثانية حيث تُفرم بالعدَد الخاصة بذلك . ووراء تينك غرفة ثالثة ، وكلّ عَمَلتها مِنَ النساء،وهنّ ينقسمن إلى قسمين ؛ فبعضهنّ يكدِّس الدخان الجيد فى علب من الصفيح ، والأخريات يلففنَ الدخان المعتاد فى الورق بأقدار،وهذا الأخير شراب المتوسطين من الناس وعامَّتهم .

ورأيتُ فى الدور الأول طبقة كبيرة تشتغل فيها جماعات النساء بعمل السجائر ، وكلٌّ منهنّ قد خُصَّت بشىء . وقد رأيت من مهارة أولئك العاملات وحذاقتهنّ ما أدهشنى من إتقان أفمام السجائر وأطرافها . وعند نزولنا قصدنا زيارة المخازن ،

وهنــاك أخبرنا الوكيل بأن ألمانيا هى أهم مُصَدِّر(١) لتلك السجائر ، والألمانيين أكثر الناس لها ابتياعًا . والواقع أن هذه (الفابريقة) قد بلغتْ من الأهمية مكانًا عظيمًا وأنها لتحوى فى موضوعها أهم المبتكرات وأحدث المخترعات .

وبعد أن سلَّمنا على الرئيس وشكرنا له حسنَ صنيعه ودعْناه وعُدْنا إلى الفندق،وهناك استسمحنا المسيو« بترويتش» وشكرناه شكرًا جزيلاً ،وأثنينا عليه ثناءً جميلاً للطفه وأدبه ووجوده فى صحبتنا وتحت إرادتنا هذه المدة، ولم يُمكنَّا وقتئذٍ أنْ نُثنى عزمه ولا أن نمنعه عن تكلف الحضور إلى المحطة لتوديعنا .

وقبل أن نطلب طعام العشاء استحسنتُ أن نبادر لأخذ تذاكر السفر،ولكننى أُخبرت من البوَّاب بأن التذاكر لا تُصرف أبدًا مقدَّمًا وأن على المسافر أن يأخذها بنفسه من المحطة ساعة قيام القطار .

باكر بك

ثم إنى فكرت فى أن افاجىء صديقى محسنًا بك بعمل يستغربه وهو أن أطعمه طعامًا شرقيًا (فلفلاً محشوًّا غير حار) . وبينما نحن فى أثناء الأكل سمعنا دقًا على الباب . وإذا الطارق صديقى العزيز باكر بك (طوظلى) ،فسارعتُ إلى لقائه وأنا فى غاية السرور به والجذل بمقدمه ، وكان قد كبرتْ سنه عما أعهده به – طبعًا – وقدَّمته لمحسن بك، وناهيك بالفرح الذى خامر أفئدتنا إذ رأينا بعضنا مرَّة ثانية على بُعد اللقاء وطول العهد وشَطِّ المزار وتنائى الأقطار !!!

---

(١) اخطأ المؤلف التعبير ؛ إذ الصحيح « مستورِد » .

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما يظنان كلَّ الظن أنْ لا تلاقيا

ولا يمكنني أن أصف للقارئ ما طرأ من التغير على ذلك الشاب الذى أصبح ثابتًا بعد أن كان يغلبه نَزَقُ (١) الحداثة وعنفوان الشباب ، نزَّاعًا إلى التنقل والتريض ، ولكنه كان فردا وقد أصبح ربًا لأسرة وعائلاً لأولاد .

ونظراً لبسالته وإقدامه انتخبه أبناء ملته ليكون زعيمًا لهم ورئيسًا عليهم .

وقد أظهر لى باللفظ اليسير تَعَسَ المسلمين وشقاءهم فى تلك البلاد ، فكان قولُه سببًا فى كدرنا وانقباض صدورنا ، وليبرهن على استياء المسلمين وعدم رضائهم أطلعنى على عريضة تَشَكٍّ مقدَّمة للإمبراطور وهى مذيلة بالمئات من الإمضاآت ، ثم أعرب لى عن استغرابه من وجودى فى بلاد البوسنة فى ظرف لا يراه يسمح لى بمفارقة الحضرة الفخيمة الخديوية ؛ إذ كان يشاع فى أنديتهم ومجتمعاتهم أن بين جلالة السلطان الأعظم والجناب العالى الخديوى خلافًا قائمًا وأن العلائق بينهما على ما لا يحب المخلصون من الفتور !!! وتلك لعمر الله أفيكةٌ (٢) من ولائد السوء يغرِّر بها سماسرة الشر ليوهموا جماعة المسلمين أن النفار مستحكم بين أمرائهم ؛ حتى لا يسكنوا يومًا للسلام ، ولا يعلِّقوا حبال آمالهم بحكومة الإسلام !!! .

فأكَّدْتُ لصديقى أنى لم أعرف تلك الإشاعة إلاَّ منه ، وأنها ليست من الحقيقة فى شىء .

---

(١) نزق : طيش .

(٢) أفيكة : كذبة .

ثم سلّمنا عليه وذهبنا إلى غرفة النوم كى نستيقظ في الصباح ، ولا سيما نحن نعلم أن جناب المسيو(باكر) كان تَعبًا من حركة السفر الطويل الذى قضى فى مسافته عشر ساعات ؛ ركب منها أربعًا متن السكة الحديدية ، وستًّا فى العربة ، فكان النوم إذ ذاك أحبَّ إليه من كل شىء .

السفر من سراجيفو إلى ياسى

ولما أصبحنا ذهبت إلى غرفة محسن بك لأنبهه إلى أن الواجب علينا الآن هو المبادرة بالذهاب إلى (المحطة) قبل أن يحين ميعاد السفر لنباشر بأنفسنا ما يلزمنا من نحو شحن الخدم لمتاعنا وغير ذلك . ثم انثنيتُ إلى غرفة (باكر بك) لأودِّعه فألفيتُه مشتغلاً بلبس ثيابه إذ كان فى نيته أن يصاحبنا بقدر ما يستطيع إلاَّ أنى لم أرَ فى الوقت ما يسعنى لانتظاره ، فأخذت محسنًا بك واستأجرنا عربة (لا ندوه) ، وكان معنا حقيبتان (خُرْجان) رأينا من الحرص عليهما أن نصطحبهما . كيف لا وفى أحدهما نقودنا وفى الآخر ما نحتاج إليه من العقاقير ؟

وصلنا إلى المحطة قبل قيام القطار بعشرين دقيقة ، فأسرع محمد أغا بشحن أمتعتنا ورجع طالبًا منى المصاريف ، وقد تأهبنا للسفر ووجدنا كلَّ ما يلزمنا حاضرًا ، ثم أن باكرًا بك لحق بنا إلى (المحطة) وكان هندامه وملبسه آنَقُ منه بالأمس وألطف ، ثم خلاّنا ومكث غير بعيد ليفطر ، وحين رجوعه أخذنا نتغادى ونتراوح [1] على رصيف (المحطة) حتى أزفتْ ساعة الرحيل .

---

(١) نتغادى ونتراوح : نمشى جيئةً وذهابًا .

وكنت أعجب بأننا ثلاثة من الشبان نلبس (الطربوش) ونرتدى أثمن الملابس وأفخر الثياب بين أولئك التعاسَى الحال أخلاق الأسمال(١) الذين كانت أنظارهم متجهةً إلينا محدِّقة بنا وخصوصًا عندما رأونا ركاب الدرجة الأولى فى هذا القطار دون سائر الناس .

سار القطار ، وما فتىء يطوى الأرض بأقدامه الحديدية طيًّا حتى وصلنا بعد ساعة ونصف إلى (محطة) صغيرة ، وهنا نزل باكر بك ليركب منها قطار الساعة التاسعة والنصف قافلاً إلى مدينة « سراجيفو » حيث كان وجوده ثمت ضروريًا ليترأس جمعية هناك .وقد أظهر لنـــا من عبارات الجزع على مفارقتنا والأسف لعدم إمكانه مصاحبتــنا مسافة أطول من التى قضاها معنا ، وأعقب ذلك بأن تَرَجّانى فى أن أرفع احتراماته للجناب العالى .

وتركنا، فصرتُ وصاحبى محسن بك فردَيْن بعد ما كنا معزَّزَين بثالث ، وقد وجَدْنا من وحشة فراقه ما كنا نتناساه ونتسلَّى عنه بمشارفة (٢) غضارة (٣) النباتات ونضرة المزارع التى كان شكلها ومناظر الطبيعة العمومية من « سراجيفو » إلى « طراونيق » على نسق واحد .

---

(١) أخلاق لأسمال : ذوى الملابس القديمة المهترئة .

(٢) مشارفة : رؤية ومراقبة . (٣) غضارة : ازدهار .

مدينة طراونيق

أما « طراونيق » هذه فبلدة جميلة قائمة على ربوة ومنظرُها حَسَن آخذ . ولقد رأيناها مُسَوَّرة بسياجات منيعة، ومحاطة باستحكامات قديمة العهد ، تحف بها الألوف من صنوف الأشجار، ويشقها نهر « فورباس » فيشطرها شطرين ويقسمها قسمين . وعندما وقع نظرنا على هذا المنظر البديع والمشهد النضير أسفنا أيَّ أسف إذ لم يكن في مكنتنا أن نُمضي في هذا البلد يومًا واحدًا ، مع أني كنت أميل كثيرًا إلى زيارتها ؛ إذ كانت مقر الولاة ومنتجع الحكام يوم كانت تلك البلاد من أعمال الدولة العلية ، وكنا نرى وسط تلك الأشجار الباسقات من كثرة المساجد ما استدللنا منه على أنَّ جُلَّ سكانها من المسلمين . ومن الغريب أن هناك كنيسة كبيرة كاثوليكية وأن الحكومة خصَّتها من بين المعابد برفدها [1] إذ هي تصرف عليها سنويًا – هبةً منها ومنحة– ما يربو على الثلاثين ألفًا من الفلورينات وهي مشيدة وسط بلد جُلُّ سكانه من المسلمين ! . . ومن هناك لم يكن في طريقنا ما يلفت أنظارنا اللهم إلا أننا كنا نقترب آنًا فآنًا من سفوح الجبال المتتابعة . وقبل وصولنا إلى محطة (ياسي) بنحو عشر دقائق شاهدنا فابريقةً كبيرة لصنع (الكربيت) [1] وتلك المحطة آخذة بناحية تبعد عن المدينة بمسافة .

أما وصولنا إلى البلد فكان حيث الساعة الثالثة والدقيقة اثنتان وأربعون .

---

(١) برفدها : أي بمعونتها .

(٢) الكربيت : لعله يقصد الكبريت .

وكنتُ لمّا أن ألقى القطار عصاه إلى المحطـة وأمنتُ على متاعنا أتربص أنا وصديقى أوَّل مركبة تصادفنا لنصل على عجل إلى الفندق مخافة أن يضيقَ بمن يقصده قبلنا من السياح .

فى مدينة ياسى

ورأينا تلك البلدة - كسائر بلاد البوسنة - كيان استحكاماتها القديمة ، ويمرُّ الداخل إليها ببوَّابة عتيقة البناء إلا أنها حسنة الهيئة جميلة المنظر . وعندما وصلنا إلى الفندق الذى كان قريبًا من هذه البوَّابة وجدنا صاحبه واقفًا ينتظرنا ببابه تظهر عليه علائم القوَّة والشدَّة وهو مع ذلك باشّ الوجه باسم الثغر . أما ذلك الفندق فكان لا يحتوى إلاَّ على سبع عشرة غرفة ، وحينما استقبلنا صاحبه أعدَّ لنا غرفتين فى الدور الأول وغرفةً ذات سريرين بخصوص اثنين من خدمنا فى الدور الأرضى ، أما الخادم الثالث فقد اضطر للسكنى فى غير ذلك الفندق لعدم وجود مَناخ (١) له فيه . وبعد أن تناولنا الشاى توجهنا لرؤْية منحدر المياه المسمّى بيازى حيث يتدفق عليه نهر « بليفا » الذى يصبُّ فى نهر (فورباس) منحدراً من ارتفاع ثلاثين متراً وتتشعب مياههُ إلى عشرة جداول ، وما كان أشبه هذا المنظر بما شاهدته فى بلاد النرويج . وأذكر أنه كان فى صحبتنا ساعتئذٍ محمد أغا الذى كان دليلُنا فى هذه المعاهد . وبعدما استجلينا هذه المناظر الطبيعية البديعة ، مررنا بالحديقة المغروسة بصنوف الخضر ، ويطلق عليها أهالى ذلك البلد اسم (البستان الكبير) ،

---

(١) مناخ : مكان إقامة .

وإنهم ليعدّونها كذلك ، وحيث لم يكن لنا خبر بتلك الطرائق (١) ولا عهدَ لنا بها من قبلٍ ؛ اقتربنا على غرَّة من كوخ فيه كلب عقور رائع الهيئة مملوء شراسةً وغدراً ، وعندما بصر بنا أخذ ينبح نباحًا عاليًا ويعوى عواءً مزعجًا ، فذعر محسن بك ذعرًا ، ونفر يَحسَبُ أن الكلب مطلَق ، ولكنه والحمد لله كان مقيداً موثقًا .

ثم انثنينا إلى الفندق ، وهناك سألنا صاحبه عن الأمكنة التى يجدر بنا أن نزورها ، فدلَّنا على المغاور التى لم نجدها بعد من الأهمية فى شىء ولا فرق بينها وبين غيرها من الكهوف فى كل الجهات ، فانصرفنا إلى مشاهدة الكنيسة الفرنسيسكانية ، وفيها رأينا فى صندوق من الزجاج رُفاتَ (استفانو الأول) رأسُ ملوك البوسناك وأوَّلهُم .

قلعة ياسى

ثم أن صاحب الفندق أوعز إلينا أخيراً بمشاهدة القلعة القديمة ، فاستحسنّا هذه المشورة وآثرناها على كل ما رأينا من المشاهد ، وحيث كانت القلعة مملوكةً للحكومة ولابد لمشاهدتها من استئذان قومندان البلد الذى كان وقتئذٍ مشتغلاً بالمناورات العسكرية ، واتفق من حسن الصدفة أن مفاتيح القلعة كانت مودَعة عند بوَّاب الفندق ، وإنما كان سببُ استيداعها عنده كونَ ذلك الفندق تابعًا للحكومة أيضًا ، فأذن لنا فى الذهاب إليها والتفرُّج عليها ، ولقد لاحظنا أن سكان البيوت التى على حافتَىِ

---

(١) الطرائق : الطرق .

الطريق يُشرفون علينا ويتطالون إلينا من خلال النوافذ ونحن صعود إلى القلعة . وإذ وصلناها فتح لنا ذلك البوّاب ، وإذا هى تحتوى على أربع غرف مبنية بالخشب وهى مستودعات للمهمات العسكرية، وبيتين أحدهما مستودَع للمهمات والآخر مستعمل لخَزْن علف البهائم ومؤونتها . وفى الداخل رأينا على أثر القلعة القديمة (لوحة) من الرخام مرسومًا عليها صليب وحوله كتابات مرقومة ، فسألنا مرشدَنا فى هذا المعهد عن سبب وضع هذا (اللوح) بهذه الصورة ، فأخبرنا بأنه فى تلك البقعة قُبِرَ رأسا مسيحيين . وأخذ يقص علينا تاريخَ قتلهما ودفنهما ، حيث زعم أن الأتراك هم الذين قتلوهما وشهَّروا بهما تشهيرًا ففصلوا رأسيهما وقطعوا لسانهما وجدعوا أنفيهما وصلموا آذانهما ثم شكّوا رأسيهما على رمحين !! . .

ثم ذهبنا غيرَ بعيد من تلك البقعة حيث أرشدنا إلى باب هناك مرسوم عليه النصف الأعلى من هيكل إنسان مجدوع الأنف وعلى رأسه شعار . وزعم مرشدُنا أنها صورة أحد الملوك ، وأنه كان موجودًا على ذلك التاج صليب مرسوم ، والذى محا ذلك الصليب وجدعَ أنف ذلك المتملك لابد أن يكون هم الأتراك !!

وأما أنا فلا أظن إلا أن تلك الصورة تمثال واحد من الشجعان الباسلين ، وقد يكون مجريًا أو كروسيًا . ثم أرشدنا فى تلك البقعة أيضًا إلى برج مُدَّعيًا أنه كان مَحْبَسَ المظلومين الذين كان الأتراك يزجّون بهم فى أعماقه ويَدّعونهم خماصًا (١) ظماء

---

(١) خماصًا : جوعى .

حتى يموتوا جوعًا أو يهلكوا عطشًا !

وبالرغم عن اعتقادى أن كلام هذا المرشد (الغَوِىّ) مَحْضُ فضول لا حاجةَ له من الصدق ، فإن ذلك الرجل أثار غضبى بمرائه[١] وكدَّر صفوى بافترائه لما رأيت من أنه كان يتغفل مخاطبيه ويُلْبِس عليهم الحق ويزين لهم الباطل ؛ لأن ذلك البرج الذى ادَّعَى إفكًا أنه كان سجن المظلومين على عهد الأتراك إنما هو جزء من القلعة متصل بها متمم لها ، وهو من استحكامات الدفاع التى كانت مستعملة كغيرها فى ذلك الحين ، وأنه أصبح اليوم منفصلاً عنها لأن أثر الحائط الذى يدل على اتصالها به لا يزال موجوداً يُرى وإن درسته[٢] الليالى وحطمته الأيام .

وبعدما استجلينا المعاهد قَفلنا راجعين . وفيما نحن منحدرين صادفنا فى طريقنا بعض السيدات المسلمات وكنَّ يسترنَ بالنقاب كلَّ وجوههنَّ كما بيَّنا ذلك فى جملة عوائدهنَّ ، وفوق ذلك رأيناهنَّ يبالغنَ فى التستر ويغالينَ فى الاستخفاء بتحويل وجوههنَّ إلى الحائط وبتحويل جميع الأجسام حتى لا يبدو منهنَّ شىء . وإن ذلك لناشىء من فرط الحياء والحرص على الأخلاق الإسلامية والعوائد الشرقية .

أما الدليل فما رآهنَّ يفعلنَ ذلك حتى سخر منهنَّ وضحك من عملهنَّ وأخذ يَهْذِى قائلاً (إن أولئك الناس لغريبو الطباع وأشد غرابةً أنه إذا سعى المرء وزوجه فى طريق كهذا وصادفهما

---

(١) بمرائه : جدله وكذبه . (٢) درسته : أبادته ، هدمته .

أحد حاولت المرأة الاستخفاء خلف بعلها !) فاشمأزت نفسى من هزوء ذلك الرجل ، وامتعضتُ بما كنت أرى عليه من احتقاره عوائد المسلمين الذين تجمعنى وإياهم صلة الملة وتربطنى بهم وشيجة الدين . ولم يَسعْنى وقتئذٍ إلاَّ أن أدافع عنهم جهد المستطيع . فقلت له : « تعلَّمْ يا هذا أن لكل قوم عادة يرون مِن أوجب الواجبات عليهم احترامَها وتقديسها وأنهم لينصرونها على كلِ العوائد حتى ولو كانت سخيفة مرذولة وكان غيرها قويمًا مستحسَنًا . ولو أنك أنصفتَ من نفسك لم تنتقد غيرك وأنت تعلم أن العادة إذا خامرت النفس واستحكمت فيها صارت كأنها إحدى طبائعها . على أنك لم تأمن أن يكون لك ولقومك ما يؤخَذ عليكم من الأخلاق المنكَرة والعادات المستهجَنة ، وما لو بحث فيه أولئك الناس لأضحكهم منكم أكثر مما يضحككم منهم . ولاستدْعَى استهزاءهم بكم أشد من سخريتكم بهم ؛ فأوْلى لك وأحرى بك أن تكفَّ عن انتقاد الناس وتقصر عن تهجين (١) عوائدهم وتقبيح خِلالهم (٢) » .

ثم أننا رجعنا إلى الفندق مصممًا على عدم الخروج ، وهناك عدت إلى كتابة رحلتى حتى الساعة السابعة والنصف ، ثم قصدتُ غرفة الطعام حيث أزف وقت العشاء ، فرأينا كذلك هناك بعضًا من مستخدمى « ياسى » وآخرين من سكانها ، ولكن ما رأيناه من جماعة المستخدمين كان قليلاً بسبب أن سكان البلد لا يزيدون عن أربع آلاف نسمة .

---

(١) تهجين : ذم . (٢) خلالهم : أخلاقهم .

جاءَ الطعام ، وكنا نحسب أنه شهى مقبول ، فإذا هو إذا نحن نعتْناه بأنه أقبح من طعام « سراجيفو » نكون قد أطريناه (١) وبالغنا فى مدحه ! ، ومنْ ثَمَّ لم يهنأ لى أن أتبلغ منه شيئًا ، فلم ألبث إلاَّ قليلاً وعدتُ إلى غرفتى لأستعيض من راحة النوم ما فقدته من لذاذة المأكل ، وكان يمكننى أن أسهر لولا أن البلد لم يكن فيه من وسائل السمر ما يدعو إلى السهر .

منظر غضير

وفى صباح اليوم الثانى عشر عزمنا على التريض فى جهة « جزيرو » ، وكانت المسافة بينها وبين (ياسى) بضعة كيلو مترات ، وتلك لَعَمْر الله نزهةٌ لا يستطيع واصفٌ مهما بالغ أن يشرح حسنها أو يبين جمالها ، أما أنا فليس يمكننى أن أصِفَها للقارئ بأكثر من أنى أقول : لو أننا صادفنا أضعاف ما كابدناه من المشقة والنصَب فى بلاد البوسنة وعلى الخصوص فى « سراجيفو » فى سبيل الوصول إلى مثل تلك الرياضة ، لما كان من المشقة فى شىء ؛ إذ كانت الراحة تامة والرفاهية مستكملةً . وهنا أُوقفُ القارئ على بعض الشىء فى هذا المعهد (٢) النضير والمجْلَى (٣) الآخذ بمجامع القلوب . . .

هناك بحيرة مترعة يكوِّنها نهر (بليفا) ويَمُدُّها بمائه الغزير، وما أشبهها ببحيرة « برنس » فى بلاد سويسرا ، لولا أن ما

---

(١) أطريناه : مدحناه . (٢) المعهد : المكان الذى يؤمه الناس .

(٣) المجلى : المجلى أصلاً هو موضع الصلع فى الرأس ويراد به هنا المكان .

يحيط بها من سلاسل الجبال أصغر شموخًا وأقل ارتفاعًا من الجبال الحافة ببحيرة « برنس » . أما مياهها فكأنها النسيم رقةً أو هى ألطف ، واللجينُ بياضًا لولا أنها أنْصَعُ وأشَفُّ . وكان يبدو لى أنها بعيدة العمق عويصة القرار (١) ثم إن النهر الذى يخرج منها يتحدَّر من جملة متحدِّرات ويتخلله الألوف من الجزر التى كان الماء المَعين (٢) يتعرَّج بينها ويتلوَّى حولها كأنه ظهور الأصلال(٣) ، وتشرف عليه الأشجار الكثيرة تتمايل أغصانها وتتمايس (٤) أخواطها(٥) ، وأىٌّ منظر لعمرى أقرّ للأنظار من جنات تجرى من تحتها الأنهارا . وكان الماء المتحدّر من الرُّبَى الوطيئة أقلَّ بفرق محسوس منه فى الأجزاء العالية . وهناك كان الماء كذلك يمرّ بين تلك الجزائر التى يكوّنها للنظر تخلل الماء بينها . وناهيك بمنظر قد عاونت يدَ الطبيعة فى إحكامه يدُ الصنعة الفائقة ، حتى لقد بلغ من ابتهاجى به وانشراحى منه أن انتقشَ فى صحيفة نفسى ، وأخذ له مكانًا فسيحًا من صدرى ، فلا أرانى أنساه طول دهرى . وقد اقتنعتُ منه بهذا الجزء ، واكتفيتُ به عن غيره ، وصَمَّمتُ على أن لا أتوجه إلى(جزيرو) التى كانت تنتظرنا بتمام هذا المنظر النضير وختامه .

ثم انثنينا إلى الفندق ، وأجزتُ خَدَمَنا أن يذهبوا إلى تلك

---

(١) عويصة القرار : قاعها خفى لا يدركه البصر .

(٢) المعين : الصافى . (٣) الأصلال : الثعابين الضخمة .

(٤) تتمايس : تتمايل .(٥) أخواطها : فروعها .

البحيرة لينالوا من حسن ذلك المجلى البديع ما استجليناه ، ويشاهدوا من منظره الرائع ما قد شاهدناه ... ثم أننا أوصينا صاحب الفندق بعربة كبيرة لنركبها إلى (بنيالوقا) حيث لا تربط بينها وبين (ياسى) سكة حديدية .

وبعد هنيهة توجهنا لزيارة السوق الذى كان أشار علينا صاحب الفندق بزيارته . فصرنا إليه ، وكنت وصاحبى نمشى مشية عسكرية لابسين الطربوش ، وكان طريق سيرنا من الشارع الكبير . وفيما نحن كذلك قابلنا واحد (مُلاًّ) وسلَّم علينا عن بُعد إشارةً باليد ، فرددنا له سلامه وأجبناه بمثل تحيته عن قلب مخلص ونية صادقة . وكنا ننظر إلى الشيوخ الكبار الذين كانوا يصادفوننا فى الطريق فنجدهم يتهللون بنا بِشراً وسروراً ؛ إذ كانوا ينظرون إلينا فيرَوْننا طَلِقِى المحيَّا باسمِى الثغر ونحن على أحسن ما يكون من القيافة والهندام . وبَيْنَا نحن نمشى إذ صادفنا مسجد وعنده مقابر مرقوم عليها كتابات ، فوقفنا عندها حيناً ، وكان ممن دُفن فى هذه المقابر اثنان من الشجعان الباسلين وهما جابى حاج مصطفى بك وابنه . أما الأهالى الذين كانوا يمرون فى ذلك الطريق فما رأونا كذلك حتى أقبلوا علينا والتفّوا حولنا ، فبعد أن كنا نخافت بالقراءَة جهرنا بها وأعقبناها بتلاوة فاتحة الكتاب مستمطرين بها الرحمة على أولئك الأموات . ثم ذهبنا إلى السوق الذى لم نرَ أنه من الأسواق المهمة الجديرة بالفرجة إذ لم يكن فيه إلاَّ حوانيت بعض الفاكهانية والقصَّابين (الجزارين) ، فقفلنا قاصدين الفندق .

مُتَتَبِّعٌ غريب

وإذْ نحن نسير بَدَتْ منا التفاتة إلى الوراء ، فرأينا رجلاً يتبعنا وهو يلبس الطربوش والجكتا ، غير أنه لم يكن حَسَن البزَّة ولا لطيف الهندام ، وكان طويل الجسم عظيم القامة ، وليس له من شكله ولباسه ما يُشعر بأنه من أرباب المجد ولا ذوى الحسب ولا من أهل الغنَى واليسار ، فداخلَ نفوسَنا من أمر هذا الرجل ريبة ، ولما لم يبقَ بيننا وبين الفندق إلاَّ خطوات قليلة اقتربَ منّا وسلَّم علينا سلامًا تركيًا وأخذ يتكلم معنا من تلقاء نفسه ، أما نحن فلما لم نكن نعرفه من قبل أوجسنا فى نفوسنا خيفةً منه ، وكان من كلامه أن سألنا أولاً عما إذا كنا شاهدنا جميع مشاهد « ياسى » وأتينا على كل مناظرها ؟ فظننتُ من هذا السؤَال أن الرجل يرمى إلي مرافقتنا ليكون دليلَنا فى تلك المعاهد ، ولكن لما رأينا من تَبَذُّل (١) هيئته وقبح قيافته جاوبناه أننا لم نُبْقِ شيئًا من البلدة حتى زرناه ولم ندَع معهداً فيها حتى وافيناه ، وكان ذلك بمرأى ومسمع صاحب الفندق الذى استغرب منا ذلك وكأنه أنكر علينا خطابنا لهذا الرجل على هذه الصورة ، فقال لى همسًا باللغة الألمانية : إن هذا الرجل لَمِن خير رجال « ياسى » وضواحيها ، ومن أذكاهم فؤَادًا وأطولهم نجاداً (٢) ، فأفرج ذلك الكَلِم رَوْعَنا وسرَّى عنّا ما كنا نجد ، أما الرجل فما علم من تبادل

---

(١) تبذل : بساطة .

(٢) أطولهم نجاداً : النجاد حمائل السيف ، وطويل النجاد كناية عن القوة والشجاعة .

الحديث بأننا من أبناء دينه حتى أخذ يشكو إلينا بثّه وحزنَه مما تسومه الحكومة من الغبن فى المعاملة ، وحيث خشينا أن نجرى معه فى هذا الحديث ونحن وقوف أمام باب الفندق ، أشرنا إليه أن يرافقنا إلى حيث منحدر المياه إذا كان لم يرَ بأسًا من ذلك ؛ فهناك يخلو لنا الجوّ ونتكلم بما شئنا بكل ارتياح واطمئنان ، فمشى أمامنا وتبعناه فى طريق صغير حتى وصلنا إلى بقعة من الأرض كاسية بالحشائش والأعشاب ،

حديث مع أحد أعيان ياسى

وهنا وقف وقال : الا تدرون أن هذه الأرض التى تحت أقدامكم كانت مقبرة للمسلمين ، وقد هُدمت أجداث الجزء المرتفع منها تمهيدًا لأن تُتخذ فيما بعد للأبنية والعمائر ؟ وأما هذا الجزء الذى تشاهدونه من البلد المنحصر فى سور المدينة القديمة فالذى يسكنه هم جماعة المسلمين فقط ، وذلك المنزل الكبير هو منزلى ، وإنى أكون شاكرًا ممتنًا إذا تفضلتم فأجبتم دعوتى بتشريفى فى هذا المساء ، اللهمَّ إلاَّ إذا كانت هناك ضرورة تدعوكم إلى أن تُمضوا ليلتكم هذه فى (ياسى) ، فشكرنا له هذا المعروف وأعربنا عن أسفنا حيث كنا اعتزمنا على الرحلة بعد الظهر ، ولا يمكننا مع ذلك إجابة دعوته ، ثم أنه لفتنا إلى برج هناك صغير مربع الشكل ، وأخبرنا بأن الأتراك كانوا اتخذوه مسجدًا ونحن الآن نريد ترميمه وإصلاحه لنعيده إلى سيرته الأولى ، غير أن الحكومة بعصبيتها أبت إلاَّ رفض طلبنا بدعواها أن هذا البرج فيما مضى كان جزءًا من كنيسة يونانية !!!

فسألتُه : وإذا كان البناء من هذا البرج ولا محالة متداعيًا فَلِمَ لا تتركونه وتبقونه على ما هو عليه ليكون أثرًا من الآثار ، فإن ذلك خير من أن تضمه الحكومة إلى الكنيسة ؟ وحيثُ أن الحكومة منيعة الجانب قوية الأركان وأنها على ذلك لشديدة الأخذ فلا سبيل لكم إلى مناوأتها ، ولا فائدة تعود عليكم من وراء مضادَّتها ومخاصمتها ، بل ربما كان فى ذلك من الضَّيْر والضرّ ما هو أدهى وأمرّ .

وكان الرجل يسمع ما أُلْقِى عليه بكل إصغاء وانتباه ولم يقطع علىَّ حديثى ولم ينبس فى غضون ذلك ببنت شفة ، وبعد ما ألقيتُ عليه من النصائح والعظات أخذ يُفهمنى سببَ مباغضتهم للحكومة ومناهضتهم لها بأن ذلك ليس لمجرَّد منعها إياهم من تعمير البرج وإحالته إلى المسجدية ، بل أنهم يخشون أن تحيله الحكومة إلى كنيسة؛ حيث أن جماعة (الفرنسيسكانيين) كانوا يساومون أرباب الأبنية المجاورة له وينقدون الناس فى سبيل شرائها أثمانًا باهظة ! ثم إنه شرع يرينا الكيفية التى سُلخت بها الأوقاف منهم ، وإذ رأيتُ أن الحديث سيدخل بنا فى دور جديد مفيد انثنيت إلى الفندق ودعوته كما هى العادة الشرقية ليتعاطى معنا فنجانًا من القهوة ريثما يقصُّ علينا هذا القصص ، فدخلنا غرفتى واسترسل فى حديثه قائلاً إن والده ترك له وقفًا تبلغ غلته السنوية ألفًا من (الفولورينات) وجعل مصرفها خاصًا بسقايات ياسى (سبل الماء) وقال : ليس يعلم إلا الله مبلغ استغرابنا ودهشتنا أنه لا يدرى أين تُصرف هذه الأموال وكذلك كل شىء

من هذا القبيل ! ثم إن أوقافنا التى كان لا يقل ريعها عن عشرة فى المائة أصبحت بسبب استحواذ المصارف (البنوك) عليها لا تجود إلا باثنين فقط ! وأما مِن جهتنا معشر البكوات عيون (١) البلاد ومياسيرها (٢) وأصحاب الأملاك فيها، فقد ضربوا على أيدينا وغلُّوها عن التصرف المطلق فى ممتلكاتنا . وإن عقاراتنا منقسمة إلى قسمين ؛ أحدهما تحت تصرفنا التام، والقسم الآخر قد جُعل تحت تصرف الملتزم الذى يكون من قِبَل الحكومة ولا يمكننا تغييره ولا إخراج أملاكنا من بين يديه حتى ولو كنا لم نساومه(٣) ونتفق معه على شيء ! ثم إن هذا المستأجر المستأثر لا ينقدُنا إلا ثلث الحاصلات والثلثان الباقيان يكونان من حظه (٤) وخاصَّةِ نفسه (٥) وما كنا لنشكو لو أنَّ أولئك المستأجرين أهلُ جِدٍّ وعمل يشغلون فى الأراضى شغلاً نافعًا فتنمو مواردها وتكثر حاصلاتها ، ولكن ما حيلتنا وهم كسالى لا يشتغلون وأكثرهم من جماعة المسيحيين ؟ . ومن سوء الحظ يتفق أن أولئك المستأجرين يكونون من الأغنياء والمثرين الذين لا يعنيهم إلا تربية دوابهم وتنمية مواشيهم وما لنا نحن ولذلك حيث لا فائدة تعود على الملاك من ورائه .

تلك أعمالهم التى أوقعتنا فى الحبالة (٦) ، ونحن ولا شك

---

(١) عيون البلاد : أعيان وكبار .   (٢) مياسيرها : أغنياؤها .

(٣) نساومه : نناقشه .   (٤) حظه : نصيبه .

(٥) خاصة نفسه : نصيبه .   (٦) الحبالة : المصيدة .

صائرون إلى العِيلة والفقر فنكون مع المكدودين البائسين مع كوننا أرباب مَزارع وأصحاب ضياع !!! وهؤلاء علماؤُنا ومتفقهونا قد أصبحنا لا نجد منهم اثنين يعرفان ما يجب عليهما تلقاء عامة المسلمين ! وسببُ ذلك فيما أعلم أنَّ أكثر متعلمينا متظاهرون للحكومة بالوداد والإخلاص ، وقد قطعوا ما كان بينهم وبين الأتراك من الصلات والعلاقات ، والحكومة كذلك تخشى أن تعيِّن في مناصبهم من تعرف أنه من النبهاء الحاذقين ؛ إذ لو فعلت ذلك لما أمكنها أن توقف ميلهم ولا أن تمنع جنوحهم إلى الأتراك . وإنكم لا بد عرفتم مما شاهدتموه في (سراجيفو) تأخُّرنا وأدركتم تقهقرنا حتى لقد صرنا إلى ما ترون ، وحتى أنَّ النساء اللواتي كنَّ يحافظن على شرفهن ويبالغن في الحرص على عوائدهنَّ أخذنَ ينسلخن عن تلك الأخلاق شيئًا فشيئًا ، ولسنا نعلم عنهنَّ ذلك إلاَّ من يوم ساسَتْنا الحكومةُ الحالية . وإن في (سراجيفو) التي كنتم بها من مثل ذلك ما يؤَيد قولي .

وهكذا صار يقصُّ عليَّ أسوأ القصص ويضرب لي الأمثال على سخائم (١) حالهم وانصرام حبالهم ، وأن الخطة التي صارت عليها الحكومة معهم قد بذرت فيهم بذر الشقاق وألقت بينهم العداوة والبغضاء ، فانقسموا شيعًا وتفرقت كلمتهم أيدي سبا ، وما كانوا ليعلموا من قبل أن تلك الحكومة تسوِّل لهم عملها

---

(١) سخائم : سوء .

وتملى لهم من ختلها وخداعها ما تنال من ورائه مقصدَها وتحصل على مآربها حتى تصدَّعت أُلفتهم وشطَّتْ نواهم [١] .

ثم سألته عن تلك العظام التى أسلفنا أنّا رأيناها فى كنيسة (الفرنسيسكانيين) وقد أُودعتْ فى صندوق من الزجاج . فقال: لعلهم قصدوا بذلك استجلاب رغبة الأهالى واقتياد قلوبهم ؛ والفلاّح من هؤلاء فضلاً عن شعوره الوطنى فإنه مجبول على تكشُّف الأشياء ، مفطور على استظهارها ، ولا شك أن وجود مثل هذا الهيكل مما يجتذب أفئدتهم إلى تلك الكنيسة ، وأنَّ مما لاحظتُه أن جماعة الصربيين والمسلمين البوسنويين قد مُلئت أجوافهم غيظًا وأُفعمت صدورهم غلاًّ ، ولم يجدوا إلاَّ الصبر مَفْزعًا ، واليأس مع هذا الأسى خير معوان .

وبعد هذه المحادثة الطويلة تبادلنا بطاقات الزيارة كما هى العادة عند التعرف راجيًا أن أقوم له بخدمة فى المستقبل ، ولكنى ما عرَّفتُه باسمى الحقيقى ، ولو أنى عرَّفته لأطنب فى بسط شكواه وأسهب فى وصف بلواه ، بل ربما أسمعنى فى ذلك ما هو أعجب وأغرب . ثم أنه غادرَنا منشرح الصدر متسليًا بما قرأه على وجوهنا من آى التألم له والتوجع عند حديثه :

ولا بُدَّ مِن شَكْوَى إلى ذى مروءَةٍ　　　يؤَاسيك أو يُسليكَ أو يتوجَّعُ

ولما أن جاءَ وقت الظهر نزلنا إلى غرفة الطعام لنتناول شيئًا منه قبل السفر ، إلا أنى كنت بما سمعتُ ضائقَ الصدر ...

---

(١) تصدعت ألفتهم وشطت نواهم : تشتت صفوفهم وتفرقت كلمتهم .

مبارحة ياسى إلى بنيالوقا

وما وافتِ الساعةُ الثانيةَ عشرة والنصف حتى كانت عربةُ السياحة التى سبق أننا أوصينا بها فى انتظارنا ، وهى تشبه عربات سويسرا ، وتحتوى على أربعة مقاعد من الداخل واثنين على سطحها وواحد بجانب الحوذى ، وفى مؤَخَّرها صندوق حديدىّ لوضع الأشياء ذات القيمة ، ويقودها جوادان من الخيول المجرية . وفى هذا الوقت شحِن المتاع الذى ربما كان يتعذر شحنه بأجمعه لولا همة محمد جعفر وإرغامه أنف الممانعين . فوُضعتْ الطرود الصغيرة فى ذلك الصندوق الحديد ، ثم إن الخدم جلسوا إلى الأمكنة التى عيَّنتُها لهم فى تلك العربة . فجلس محمد أغا بجوار الحوذى، وجعفر ودولت على سطحها ، وأما أنا وصاحبى فكنا داخل (اللاندوه) الذى كان شطرُها مفتوحًا ولم يمكنّا إقفاله بالكلية بسبب ما معنا من المتاع . ثم جلسنا ننتظر سير العربة حتى سئمنا الانتظار ، وما كان أشبهها وقتئذٍ بقطرات إيطاليا التى تظل واقفة بركابها بعد أخذ إشارة القيَام زمانًا طويلاً . . .

سِرْنا وكان صاحبُ النزل واقفًا لوداعنا وهو باش الوجه متبسِّم الثغر . وإذ نحن مارّون بحديقة صغيرة رأينا ذلك البك الذى أسلفْنا حديثه ينتظرنا ليودِّعنا كذلك ، فودَّعناه وسرنا بسلام .

بارحنا (ياسى) هذا البلد الذى لم نكن لنسرّ بمفارقة بلاد

البوسنة بأكثر مما كنا نأسف على فراقه ؛ فلقد وجدنا من حسناته ما ذهب بسيئات غيره ﴿ إن الحسنات يُذهبنَ السيئات ﴾ ولئن كانت كل بلاد البوسنة ذنوبا فلقد رأينا لها من (ياسى) أحسنَ العذر وأجملَ الغفر .

استطراد فى السياحة

على أنى – ويعلم الله – كنت بين تلك الحوادث كأحسن ما أكون لذةً وسروراً ؛ إذ أنى استفدتُ بمزاولتها وممارستها من الدروس النافعة الجَمَّة والفوائد الكثيرة ما لولاها لم يكن أبداً . والذى كان يُحبِّبها إلىَّ ويسهِّلها علىَّ إنما هو كَلَفِى [1] بالعلم وشغفى باستكشاف ما يكتمه ذلك الوجود الكبير فى صدره ويطويه هذا العالَم الخطير تحت جناحه . فلما أصبحتُ أرانى أضمُّ إلى علمى بمشاهد أوربا وما تحويه جوانحها من الغرائب والعجائب علماً جديداً بهذه الأقطار النائية وما طوت ، وتلك البلدان القاصية وما حَوَتْ ، لا أجدنى أبالى بمفاجأة الحوادث مهما بلغتْ، ولا بمناوأة الكوارث كيفما عظمتْ ، بل إن الذى يهمُّه العلم لا يجد الفائدة تامَّة ولا يحصل على الغرض كاملاً إلاَّ حيث يتلقى دروسه عن أفواه تلك الحوادث ، وإلاَّ حيث يَثبت أمامها ويجلس بين يديها ، وهو ولا ريب لا ينال من علمها ومعارفها إلاَّ ريثما تبلغ هى من قوته وثباته . نعم ، ولا ينتفع بها فى مآربه إلا قَدْرَ ما يعطيها من إقدامه ونشاطه . وقد قيل :

---

(١) كلفى : تعلقى .

على قَدْر أهْلِ العزم تأتى العزائمُ   وتأتى على قَدْرِ الكِرامِ المكارمُ

أما والإنسان يخشى مقابلتَها ويتهيب لقاءها ، فقد وقف به ضعفُه ، وقعد به عجزُه ، حتى إنه ليرى أن يمسك بالسماء أو يأخذ بزمام الجوزاء أسْلس له من موافاتها وأسهل عليه من مداناتها، فتكون نتيجته الخسار وغايته الحرمان :.

لأستسهلنَّ الصعبَ أو[1] أُدركَ المنى   فما انقــادتِ الآمالُ إلا لصــابر

الإنسان بطبعه جَنوحٌ إلى رؤية الغريب ميَّال لاكتشاف الجديد (ولكل جديد لذة) ، وقد يصادف هذا الميل من الظروف والمقتضيات ما يقوِّيه ويقوِّمه حتى يصير طبيعةً مفطورة وجبِلةً [2] راسخة ، كما قد يَعْتَوِرُه [3] من العثرات والموانع ما يُوهِيه ويُوهنه ، ولربما ذهبَ به ومحا من النفس أثره ، ولقد غالى بعضُ الناس فى أمر السياحة والاكتشاف حتى وقفوا لها نفوسهم وقصروا عليها أعمارهم ، فاستفادوا وأفادوا عِلْمًا بالبلاد ، وإحاطةً بطبائعها دروسًا نافعة فى أخلاق الناس وعوائدهم ، وإن وراء ذلك من التمدن والتمدين ما لا يخفَى على أحد ، والحق أن أعظم فتح نعرفه فى هذه القرون الأخيرة لم يكن الشأنُ فيه للرماح المُثْقَفات[4] والقِسِيِّ المعطَّفات[5] ، كلا ولا للأسِنَّةِ القواطع والنصال اللوامع ، بل الفضل كل الفضل راجعٌ ولا مرية إلى

---

(١) « أو » هنا بمعنى (إلى أنْ) .

(٢) جبِلَّةً : طبعًا وخلقًا . (٣) يعتوره : يصادفه .

(٤) الرماح المثقفات : الرماح المستوية المعتدلة .

(٥) القسى المعطفات : القسى المنحنية أو اللينة .

السياحة والاكتشاف ، نعم قد تتفاوت المشارب وتتباين الأغراض في القصد إلى السياحة إلا أنها أشبه بمجموع أغراضها ومزاياها بالنخلة ؛ فكل ما فيها من جذع وفرع وطَلْح وطَلْع وصنو وقنو طَيِّبٌ نافع مفيد ، كما وأنى أشبِّه السائح فى ظعنه وإقامته بالمخترع يقصد إلى عملٍ مخصوص فى نفسه حتى إذا هو مارس الطبيعة وعالج تراكيبها وتحاليلها وأعمل فكرَه فى خواصها ومزاياها ظهر له (عَرَضًا) فى غضون عمله من نفيس الأسرار وغريبْ الخواص ما لا يرى غرضه شيئًا فى جانبه (ورُبَّ عَرَضٍ فَضُلَ جوهرًا) .

سافرتُ إلى بلاد البوسنة لأغراض ثلاثة : الأول : تغيير الهواء وتبديل المناخ ومشارفةِ مناظر الطبيعة ، الثانى : التدرب بالسياحة فى تلك البلاد على اجتياز ما هو دونها مدنيةً وأقل حضارةً ، الثالث : معرفة عوائد القوم واكتناه أحوالهم والوقوف على أخلاقهم ، فرأيت هنالك بطريق (العرَض) من مهام الأمور وعظائم الآثار ما لم تكن مقاصدنا الأولى معه شيئًا مذكورًا ، وخصوصًا ما يتعلق بالمسلمين فى أحوالهم وآمالهم ومعارفهم وعلومهم وحياتهم السياسية إلى غير ذلك مما هو مبسوط فى هذه الرحلة .

عَوْدٌ إلى بدءٍ

هذا والغريب أنَّ الحوذى لم يكن لينبه المارة بنفخ البوق ولا قرقعة السوط (الكرباج) كما هو المعروف من الحوذيين فى مثل ذلك ، بل أنه كان يصفِّر بصفارة صغيرة ، ثم لما جاوزنا البلدة وسرنا فى الخلاء أسرعت المركبة حيث الطريق مستو معتدل وهو

آخذ فى طوله بموازاة نهر « فورباس » وما زلنا نقطع المزارع والحقول ونمر ببلاد صغيرة حتى دخلت بنا العربة نفقًا فى الجبل يبلغ طوله مائة وخمسين مترًا ، وقد أضاؤه بلمبَتىْ (بترول) وتلك أول مرة مررت بالأنفاق واجتزت فيها بطون الجبال . وتركنا هذا النفق إلى أودية ضيقة جداً حتى كان يخيل إلينا أن الجبلين متلاصقان ، وإذ ذاك رأينا نهر « فورباس » يتحدَّر بقوَّة عظيمة . ثم أسلمتنا تلك الأودية إلى نفق آخر ولكنه لم يبلغ طول الذى قبله . ثم عبرنا النهر على قنطرة حديدية تباطأ الحوذى عندها فى السير ، ولستُ أدرى لِمَ ذلك والجسر كان صلبًا متينًا ؟ وما زلنا نسير تارةً عن يمين النهر وطوراً عن شماله . وكنا نرى عناية القوم بتنظيم الطريق شديدة عظيمة ؛ إذْ كنتُ أرى مِن وقتٍ لآخر الفلاحين وبعضهم منهمك فى تكسير الحجارة وتجهيزها والبعضُ الآخر مهتمّ بتطهير المجرى المحاذى للطريق . وبعد مُضِىٍّ ساعةٍ ونصف أخذ الحوذى يمشى الهُوينا حتى وقف على ينبوع ماء هناك مخصوص بسقى الدواب ، ومن هذا الينبوع سقى الحوذىُّ خيلَه واستأنف السير ، فدخلنا بين جبلين حسبناهما لشدَّة قربهما متلامسين . وأجملُ ما رأت عينى هناك منظرُ الأشجار الكبيرة التى أصْلُها ثابت وفرعها فى السماء ، وأذكر أنه لم يقع نظرى على أسمك جذوعًا ولا أسمق(١) فروعًا منها فى بلاد البوسنة ، وأنها مع كثرتها وتنوُّعها لا يوجد بينها شجر (السَّرْو) . والذى كان يَزيـــــد فى حُسن ذلك الشجر أنه كان لمحض

(١) أسمق : أعلى .

الطبيعة وليس ليـــد الصناعة مدخل فى تنسيقه ؛ إذ كنا نرى بعضه طريحًا على الأرض ، وبعضَه هشيمًا تذروه الرياح ، والبعضَ منه ملقى فى مندفع المياه . ثم إن الميت منه كاسٍ بالنبات الطبيعى المسمَّى فى عُرْف العامة بـ (عش الغراب) وهو نبات ذو شوشة بيضاء شبيهة بأجراس الكنائس . ولقد عجبتُ كثيرًا لرؤْية تلك الأشجار التى لم أرَ غراسًا بلغ فى طوله وضخامته مبلغَها، وكان لى منها أعظمَ درس فى الدويبات الصغيرة التى تنخر الأشـــجار وتنفذ فى مسامها . ووقتئذٍ تذكرتُ صديقنا الدكتور زنباكو باشا حيث أنه مغرم بمشاهدة الأشجار ، وطالما تشكَّى من الإهمال فى تعهُّد(١) الأشجار المغروسة على حافتى شارع الأهرام فى مصر وعدم العناية بها . أما تلك الدويبات فمنتشرة انتشارًا عظيمًا حتى أنها لم تقنع من مؤُونتها بتلك الأشجار على عظمها ووفرتها بل تجاوزتْها إلى الخشب التى أقيمت حجازًا على حافتى الطريق مع أنها يابسة ومنتقاة من أجـــود الأخشاب وأصلبها كيْما تعيشَ زمنًا طويلاً ، ولكن أنَّى لها ذلك وقد وجدت فيها السرفة (٢) مأوى طيبًا وطعامًا سائغًا ! وقد سبق أنى رأيت هذه الدويبات الصغيرة فى مصر تنخر الأشجار وتتخذ فيها المنافذ حتى تأتى عليها ، فإذا ما كبرتْ كانت (الفَراشَ) الحيوان الذى يعرْفه المصريون « بأبى دقيق ». وكان يشقُّ على نفسى رؤْية تلك الأشجار العتيقة مصابةً بهذا الضرر العظيم والتلف الجسيم ، حيث كنت أرى بعضها وقد تآكلت فروعه ولم تبقَ إلا جذوعه ،

---

(١) تعهُّد : رعاية . (٢) السرفة : الدود .

والبعضَ مصابًا في شق سليمًا في شق آخر ، وأكثرُ تلك الأشجار إصابةً وأبلغها تلفًا ما كان قريبًا من النهر أو مدانيًا للطريق ، ولستُ أدرى إذا كان هذا الداءُ تسربَ إلى الغابات لعدم وصولى بعد إليها .

أما المنظر فكان بعد ذلك طبيعيًا محضًا ، والطريقُ موحشًا طامسًا ، وكانت الجبال معرَّاة من النبات لعلوٍّ كعبها عن الأشجار . أما شكلها فكان عموديًا بحيث يتعذر تسلقها . ولا أحسب أن هناك موجبًا للعناية بذلك الطريق الذى يمتد إلى مسافة ٧٥ كيلو مترًا إلا جمال المنظر وحُسْن المخبر . وأما الأهالى الذين كنا نصادفهم فى طريقنا حتى النمساويين المترئسين أشغالَ الطرق فمؤَدَّبون جدًّا وهم يسلِّمون بكل خشوع واحترام على مَن يمرّ بهم من جماعة السياح .

وفيما نحن سائرون قابلنَا ضابطٌ من (الهوسار) ممتطيًا درَّاجةً وخادمُه يسعى خلفه وفى أثرهما مُهران يعدوان وراءهما ويقتفيان أثرهما خطوة بخطوة كأنهما يعقلان . وقد ظنّ الحوذى أن هذا الضابط إنما يدرّب نفسه على ركوب العجلة ، ولكنا رأينا ونحن فى منعطف الطريق جملةً من العربات تحت ملاحظة بعض الجاويشية وفى مقدّمها بعض الجنود يقودون عددًا من المهارى لا نحسب إلا أنها من نتاج اصطبلات الحكومة . ولقد ارتاحت نفسى وانشرح صدرى برؤية تلك الأمهار حتى إذا هى أجْلَتْ مرَّت نحو الأربعين عربة من عربات الجهادية وهى تابعة لجملة

آلايات من الجيش ،وفيها بعض المهمات مثل السرر الحديدية وكمية من العلف كالتبن والشعير . وكل عربة من هاتيك مخفورة باثنين من جنود الآلاى التابعة له العربة ، وهؤلاء أدُّوا لنا السلام العسكرىّ ، فرددنا لهم بكل احترام .

أما خيولهم فكان يزيد حُسْنُ نظافتها فى كمال رونقها وجمال منظرها ، والكثير منها كان حروريًا خفيفَ الحركة ، وبالجملة فتلك الخيل المسَوَّمة جديرةٌ لعمر الحق بأن تكون أنعم بالاً وأسعد حالاً مما رأيناها فيه ! .

وبعدَ ما جاوزنا تلك العربات - التى كانت تتزحزح جانبًا إذا نحن مررنا بجانبها وتَدَعُ لعربتنا من الطريق المكانَ الفسيح - رأيتُ بغتةً على بعد مائة متر تقريبًا نسرًا كبيرًا هابطًا على غصن شجرة ، وكان حجمه لا يقل فى نظرى عن حجم الحدأة ثلاث مرَّات ، فاقتربنا منه حيث كان مَجْثَمه (١) على بعد ستة أمتار من الطريق ، على أن النسر الملوكى لم تأخذه روعةٌ ولم يُبْد حراكًا ، فدلفنا إليه بضع خطوات وأوقفتُ العربة . وحيث لم يكن عندى تصريحٌ بحمل السلاح هناك سألتُ الحوذىَّ هل يتاح لى أن أطلق مسدسى لما كنت عالمًا بشدَّة قانون بلاد البوسنة بخصوص حمل السلاح ، وسببُ ذلك أن الأهالى قومٌ شديدو العبوس ، لا يكاد يفتر لهم ثغر ، وهم يميلون بطبائعهم إلى المشاغبة والمحاماة عن نفوسهم بأية وسيلة كانت ، غير أنى لعدم ضياع الفرصة وانصرام الوقت أخرجتُ مسدسى من قرابه ، والنسر لا يزال ثابتًا وهو منا

(١) مجثمه : موضع وقوفه .

على قيد عشر خطوات ، ولقد كنتُ أظن أننى أصيبه بسهولة ، ولكن كيف ذلك والنسر أبلغ منا حيلةً وأشدّ مكرًا ؛ إذ تدارك نفسه وطار حتى نزل إلى الشاطىء الثانى من مجرى النهر ، فكان حينئذٍ قَصيًّا على السهم بعيداً عن الرمية ، والخطأ إنما كان مِن أتباعى الذين اشتدّت ساعتئذ جلبتهم وعلت صيحتهم ، وأما أنا فقد بلغ منى الأسف على ضياع الفرصة وإفلات تلك القنيصة بما أن هذا النسر كان جميل المنظر حسن المرأى وهو يشبه العصفور المسمى (كوندور) بأمريكا الجنوبية ، أسود الأديم ، غير أن رقبته كاسية بالريش الأبيض وكذلك برجليه قطعتان بيضاوان ، ولقد رأيناه يصفّ (١)على النهر صفيفًا ، ويضرب بخافيتيه على سطح الماء بكل خفة ، فعلمنا أنه من النوع الذى يغتذى بالأسماك ، أما الحوذى فلأجْل أنْ يخفِّف أسفى ويهوِّن علىَّ بعضَ الشىء أكَّد لى أننا سنجد فى طريقنا كثيراً من مثله ، فاستأنفنا السير مستمرين فى طريقنا ، فرأينا عن بُعد محـــلاً من الخشب (كشك) فدلَّ لنا أننا فى منتصف الطريق ، وهو عبارة عن محطة تُستبدَل فيها الخيول التى أخذت شوطها بغيرها، وهو أودة بسيطة وأمامها بعض طاولات (مقاعد) من الخشب وعليها سقف مرفوع خشبى أيضًا ليمنع ما عساه ينزل من المطر وغيره عن جماعة السياح الذين يريدون الإيواء إلى هذا المكان للراحة أو تناول شىء من الطعام ، ووجدنا عند صاحبه ثلاثة أقفاص فيها

---

(١) يصف : يبسط جناحين دون طيران ،

عصافير كبار . وكنتُ أعرف ما في اثنين منها – وهي من النوع الذي يشدو ويتغنَّى . وأما العصفور الذي في القفص الثالث فقد علمتُ أنه من صيد تلك البلاد ولكن لست أدري من أي الأنواع هو . وقد تناولنا في الفرصة التي كانوا يعِدُّون فيها العربة فنجاناً من الشاي وأكلنا خبزاً ومربى .

وقد لَجَّ صاحب المحل وشدّد كثيراً في أن أعاود زيارة تلك البلاد في السنة المقبلة . وليُكثر من رغبتي كلَّمني في صيد السمك وأخبرني بأنهم يصطادون في هذه النقطة من صنوفه صيداً عظيماً ربما زاد عن الصيد المشهور في بلاد « الايكوس » . ثم استطرد فتمدَّح بذكر الصيد والقنص هناك وأكد لي بوجود (التيس البريّ) الوحشي والنسور والدببة الصغيرة وغير ذلك . وبعد ما مكثنا زهاء العشرين دقيقة ركبنا العربة ثانياً وسرنا متجهين إلي « بنيالوقا » ، وكنتُ مَشوقاً لتحقيق ما أخبرني به ذلك الرجل (البقال) الذي غادرناه من أنَّ في إمكاننا عند مغيب الشمس رؤْية سرب النسور في تلك المنافذ المنحوتة في الصخور التي هي أوكار ملوك الهواء (النسور) ووكناتها [1] وكلما مشينا رأينا الطريق يزداد وحشةً وبُعْداً عن التنظيم حتى كان بَعْدُ طبيعياً محضاً . والحقُّ أنَّ يد التمدن لو لم تلمس تلك البقاع لكان من الصعب الشاقِّ على الإنسان المرور بين تلك السلاسل من الصخور التي يكوِّن تلاصقها ومجاورتها لبعض المئات من المغور[2]

---

(١) وكناتها : أعشاشها . (٢) المغارات

الرحبة والكهوف الواسعة التى يمكن أن يسع الواحدُ منها خمسة عشرة نسمة ، وكان لون تلك الصخور بسبب هطول الأمطار الكثيرة عليها قاتمًا ،

وعند مغيب الشمس تنبهتُ إلى رؤْية النسور حسبما أخبرنى ذلك الرجل ، وحدَّقت نظرى فرأيت حقيقةً على باب كل نافذة نسرًا ، وعلى سبيل المفاكهة والتسلية أردت أن أذعرها فعمدتُ إلى الغَدَّارة (المسدس) وأطلقت ثلاث طلقات على ثلاث نوافذ ، فرأيت جملةً من النسور تبلغ العشرين قد حلَّقت فى الجو فزعةً مع تلك الثلاث التى زجرتها من منافذها بالسهام زجرًا ، ومن الأسف أننا لم نكن مستعدين لهذه القنيصة حق الاستعداد ، ولم يكن بين أيدينا ما يلزم لها ،

ثم أننا تركنا الجزء الجبلى الممتلىء بالسهول والحزون (١) إلى سهل منبسط ، وسرنا فى وادٍ ممتد حتى مررنا (بكروبه) ، وقد أرانا الحوذى فى تلك النقطة تَلاًّ مملوكًا لأحد البكوات فى « بنيالوقا » ، وزعم أن فى هذا الجبل أيسر الصيد وأحسنه فى كل بلاد البوسنة ، ولكن مع الأسف لم يكن صاحبه بالذى يعرف الصيد أو يميل له ،

وبعد ما سرنا طويلاً دخلنا واديًا يظهر أنه مملوك (لبيك) آخر، وهذا الوادى محفوف بغابتين عظيمتين وهما مملوكتان للحكومة ، ولما كانت الحيوانات التى تُصاد فيهما قليلة فهى إنما

---

(١) الحزون : الغليظ من الأرض ،

تعوّل على الانتفاع من تينك الغابتين بقطع أغصانهما وقلع جذوعهما لاتخاذ الأخشاب منها . وفيما نحن سائرون سلَّم الحوذى على رجل من (البوسناك) لابس للطربوش ، وكان حينئذٍ يتوضأ ، فسألتُ الحوذى عنه فأجابنى بأنه أحد أنجال (البيك) صاحب هذه الأراضى . ولقد رأينا الجزء المنزرع فى تلك الأرض صغيراً بالنسبة لما لم يزرع منها . ثم مررنا بأربعة بلاد صغيرة ، وما كدنا نفوتها حتى شاهدنا عن بُعْد « بنيالوقا » .

فى مدينة بنيالوقاً

وإذا هى بلدة قد استعاضت فى طولها ما تركتْ من عرضها، إذ كانت ممتدَّة فى واد قليل العرض عظيم الطول . ولما أن دخلناها لم نجد فيها إلاَّ شارعًا واحداً آخذاً من أولها إلى آخرها ، فسرنا فى ذلك الشارع حتى انتهينا إلى آخره ، وهناك كان الفندق الذى نزلنا به ، وإذ دخلنا من بابه رأينا صحنه (كحوش) الدواب فى بلادنا ؛ إذ كان مَرْتَعًا للدجاج والبط والديكة ، وقد استودعتْ زواياه بعض عربات النقل . فأخذَنا صاحب هذا الفندق الذى كان ينتظرنا على بابه إلى مَحالِّنا ، فرأيت الغرفة التى خُصصت لى واسعةً وفيها سريران ، وكانت غرفة محسن بك على عكسها وليس فيها غير سرير واحد ، أما الخدم الثلاثة فقد اكتفوا بأودتين ثنتين .

وبعد أن استرحنا قليلاً وغسلنا وجوهنا نزلنا قاصدين إلى غرفة الطعام للعشاء ، ولكن أين هى تلك الغرفة التى حاولنا معرفتها فلم نجد لها فى ذلك النزُل عيناً ولا أثراً ! حتى هُدينا إليها

فى جهة يفصلها عن الفندق شارع ! وفضلاً عن ذلك فقد رأيناها أودةً قذرة وهى مضاءَة (بالكبريت) ، فطلبنا من الطعام ما تهيأ، فقدّمت لنا قطعة من اللحم المطبوخ (بالصلصة) وكانت لذيذة الطعم ، فأمّلنا أنَّ كل الصحاف تكون على هذه النسبة . وبعد العشاء صعدتُ إلى غرفتى التى كانت مضاءَة (بالشمع) ليس إلاَّ . وإنه ليشق على الإنسان أن يبصر فى مثل تلك الردهة الواسعة التى لا يقوى عليها مثل هذا السراج الضئيل .

ولما كنتُ مضطرًّا إلى الكتابة فى رحلتى طلبت إلى الخادمة أن تأتينى (بلمبة) بترول ، فأظهرت اهتمامًا بهذه المهنة ، غير أنها جاءَت بعد (بلمبة) فى منتهى القَذارة . ويعلم اللهُ أن تلك الخادمة نفسها كانت بعيدةً من الحسن بريئةً من الجمال، ولكيلا تَدَعْ من القبح شيئًا كان صوتها جهيرًا مزعجًا ! . .

جلستُ أسطر فى رحلتى ، ولكنْ لما كنت أجد من التعب لم أستطع مع الكتابة صبرًا ، فلم يسعنى إلاَّ تحرير صحيفتين فقط. ثم عمدتُ إلى النوم ، ولكن لسريان الضوضاء إلى أذنى من سكان الردهة المجاورة لم يتيسر لعينيَّ الإغماض وخشيتُ أن أبيت كذلك طول ليلى ، ولكن ولله الحمد غلب سلطان النوم على جيرانى، فنمتُ كذلك آمنًا مطمئنًا .

وفى الصباح نهضتُ لأزور البلد كما هى عادتى ، فرأيتُ أن أسأَل أولاً بوَّاب النزُل الذى كان رَثَّ الهيئة قذر الثياب عن المعاهد التى يَجمُل بالسياح أن يزوروها ، فأجابنى بأنه لم يكن هناك ما يُختلَف إليه ويُتفرَّجُ عليه سوى دير (الدومينيكان)

وفابريقتهم ، وإن هى وايم الله إلاَّ إحدى الأحابيل التى ينصبونها للأهالى والأشراك التى يتصيدون بها الناس (للكنيسة) وإذ علمتُ أنه ليس ثمت ما يهمنا زيارته صممتُ على الذهاب إلى (المحطة) للاستفهام عن مواعيد القطارات وأخذ التذاكر أيضًا .

وحيث كانت تلك (المحطة) قريبةً من الفندق ولا حاجة بنا إلى الركوب إليها سعينا لها مشاةً ، وهناك وجدنا واحدًا من مستخدميها نحيفَ الجسم ، فأشار لنا بإصبعه إلى جدول السكة ، ونصح لنا بأخذ قطار الساعة السابعة صباحًا الذى يصل إلى (اجرام) حيث تكون الساعة ثمانية والدقيقة ٣٢ ، ثم جلسنا إلى كراسى من الخشب ننتظر – بغير رجاء – مرور عربة لأن هذا البلد خلو من العربات اللهمَّ إلاَّ تلك المركبات المبسوطة المملوكة للفنادق والمخصوصة بالبعض من سراة الأهالى . فطلبنا أخيراً إلى صاحب الفندق أن يحضر لنا عربة ، وهو عهدَ بهذه المأمورية إلى رجل هناك خَلِقِ الثياب ينتعل فى قدميه (مركوبًا) أخْنَى عليه الدهر حتى غادرَ فيه للريح مخترَقًا ومجالاً ! . .

وإن هذا الرجل لأشبه ما يكون بزمرة اللصوص . وإنى وإن كنت رأيت من الفقراء والمساكين عدداً كثيراً إلاَّ أنى لم أرَ فيما بينهم من هو على شاكلة هذا الرجل ولا فى هيئته وصورته !! .

استدعاءٌ فجائى مخوف

وكان ذلك فى وقت الصباح ..

ولما أن كان هناك وقت فسيح قبل الغداء عُدنا إلى الفندق

وصعدتُ إلى غرفتى لأستريح هنيهةً ، وبينا أنا كذلك سمعتُ إنسانًا يقرع الباب فأذنت له فى أن يدخل ، وإذا به رجل من رجال البوليس طويل القامة ، فاستغربت مفاجأته على غرَّة لغير مناسبة ، فسألته : ماذا تريد منا ؟ ولأى شىء جئتَ إلينا ؟ فخاطبنى باللغة الصربية ، ولمَّا لم أفهم من كلامه مراده استحضرتُ محمد أغا ليترجم لى خطابه ويبين غرضه ، فعرفت أنه رسولُ المحافظ إلينا ليطلبنى وصاحبى إلى دار المحافظة فى الساعة الثالثة بعد ظهر هذا اليوم !!! فقلت له : إنا طائعون ومتقبلون لهذا الأمر وسنكون إن شاءَ الله فى دار المحافظة عند الوقت المحدود ، ثم ذهب الرجل على ذلك ، أما أنا وصاحبى فقد استغربنا ذلك الطلب الذى فاجأتنا به المحافظة وأنه لا مقتضى هناك ولا سبب ! ولكننى أدركتُ أن الخادمة التى كنتُ طلبت منها (اللمبة) بدل الشمعة قد رأتنى وأنا أكتب على ورق أبيض كبير، فأبلغت المحافظة أو مَن يُبلغها ذلك أننا من الجواسيس لأن المستخدمين فى تلك البلاد الصغيرة لهم مع الحكومة معاملة من هذا القبيل ! ثم إننا بعد أن تناولنا طعام الغذاء قلت لمحسن بك : يلزمنا الآن أن نلبس (البدلة الردنجوت) لنكون على هيئة رسمية ،

وإذ ذاك أمرت الخادم الجركسى بأن يحرس متاعنا ويحتفظ به وخصوصًا الصندوق الذى أودعنا فيه نقودنا اللازمة لسياحتنا ، وفى ذلك الوقت نفسه أرسلتُ صورةَ ثلاثة تلغرافات منها واحد لسراى الامبراطور ، وآخر لسفير الدولة العلية ، والثالث لسفير الدولة البريطانية ، وذلك لأجل الاحتياط مما عساه يحصل لنا من

الحبس أو المشاكل ، وقبل أن تحين الساعة الثالثة بخمس دقائق ركبتُ أنا وصاحبى العربة وأخذنا معنا محمداً أغا الذى تركناه بعيداً عن المحافظة ليراقبنا ويلاحظ من بُعْدٍ ما ربما يحدث لنا ، ولما أن وصلنا إلى دار المحافظة استقبلَنا سبعةٌ من رجال البوليس ، فنزلنا ووقفنا ننتظر حينئذٍ ماذا يقولون لنا ، ولكنهم لم يقولوا شيئًا حتى مضى ربع الساعة ونحن واقفون على سلم الباب ولم نرَ منهم شيئًا سوى أنهم كانوا محيطين بنا إحاطة السوار بالمعصم ! فتكلمتُ معهم باللغة النمساوية قائلاً : يا أيها الناس إنَّا كنا مطلوبين فى الساعة الثالثة وها هى الآن ثلاثة وربع فخبِّرونا عن سبب ذلك الطلب ، وإنى :

لقد أسمعتُ لو ناديتُ حَيًّا   ولَكِنْ لا حياةَ لِمَنْ أنادى

ولما لم يفهم خطابى أحد منهم وهم جميعًا سكوت لا ينطقون عدلتُ عن الكلام باللغة النمساوية إلى الكلام باللغة التركية لعلهم يفهمون ، فقلت : يا هؤُلاء أليس منكم رجلٍ يتكلم باللغة التركية ؟ فنهض من بينهم رجلٌ هَرِم قائلاً : إن المحافظ الذى هو قومندان البوليس ومأمور المركز بل وكل شىء لم يأت حتى الآن ، وعن قريب يجىء ، فترجيتُه فى أن يأتينا بكراسى نجلس عليها ريثما يحضر ذلك المحافظ حيث لم نكن من الذين قتلوا ولا أجرموا أىَّ جرم كان ، فقال : أما إذا كنتَ تريد الجلوس والراحة فعليك بالقراقول مشيراً إلى أودة قذرة ، وما كاد يُتمُّ حديثه حتى قدم جناب المحافظ (بسلامته) ، وإذا هو رجل عَبوس الوجه وعليه تظهر أمارة الكبرياء والعظمة ، وكان يمشى

وراءَه حين دخل دار المحافظة كلبٌ كبير ، وما أدراك ما المحافظة ؟ هي طبقة واحدة لا تحتوى إلاَّ على أربع غرف !

ولما مضى خمس دقائق من دخوله أرسل إلينا من ينادينا إليه، فدخلنا عليه ، وكان جالسًا إلى مكتبه وكلبه تحت قدميه ، وعلى يمينه مسدس . فالتفتُّ وراءنا فوجدتُ عسكريًا واقفًا على باب ذلك المحل . ثم رأيتُ كلَّ شباك عليه كذلك عسكرى يحرسه ، أما المحافظ فقد أوقفنا أمامه كما يقف المذنب المجرم،وأخذ يسألنا : من أنتم ؟ ومن أين جئتم ؟ ولأى شىء أتيتم بلاد البوسنة والهرسك ؟ وكم يوم أقمتم فى تلك البلاد ؟ ولما كنت موجودًا أمام أحد موظفى الحكومة فى بلد كانت آخر محطة فى بلاد البوسنة ، لم أرَ بأسًا من التصريح له باسمى الحقيقى ، بل رأيت أن الواجب فى هذا المقام هو ذلك . فقلت له إنى أنا الأمير محمد على باشا شقيق الجناب العالى خديو مصر ، وأن هذا صاحبى محسن بك راسم نجل أحد كبراء بلادنا ومن ذواتها المقيمين بالإسكندرية . فلم يصدِّق بكلامنا ولم يقتنع بتعريفنا ، بل طلب منا أن نبرز إليه (البزابورت) ، فقلت له : إنى حينما سألت فى (فينا) عما إذا كان يلزمنا استصحاب (بزابورت) فى بلاد البوسنة أوْ لا قالوا لا حاجة لكم به ولا داعى إليه حيث أن بلاد البوسنة تابعة لبلاد النمسا . فخاطبنى بشدَّة وحدَّة قائلاً : أما البزابورت فإنه يلزم دائمًا فى بلاد البوسنة والهرسك . فقلت له : إذا كان الحال كذلك فلمَ أباحوا لنا الدخول فى الحدود ؟ على أنهم قد سألونا عندها عن مدة إقامتنا فى تلك البلاد ، وسألونا

أيضًا عن عنصرنا ، ولم يسألونا عن ذلك البزابورت ، ولو كان كما تدَّعى لازمًا فى كل بلاد البوسنة والهرسك دائمًا لكان أول مسئُول عنه ولكان أوْلَى بالسؤَال من كل ذلك ! .

كل هذا والرجل لم يقتنع ، فأدركتُ أنه لا يزال يسىء الظنّ بنا ويفهم أننا من أولئك الجواسيس أو شىء نحو ذلك ، وعندئذٍ قلت له : يا جناب المحافظ إنى لمستغرب من أنكم تعاملون بهذه المعاملة القاسية أناسًا لا يمكنك أن تستدلَّ على شرف نفوسهم وكرم عنصرهم بأكثر من أنهم يسافرون المسافات القاصية والأقطار النائية فى أعلى درجات السكة الحديدية خصوصًا إذا كان معهم ثلاثة من الخدم يركبون فى الدرجة الثانية التى يركب فيها أكابر مستخدمى الحكومة النمساوية وينزلون فى أرفع الفنادق ويتخيرون أعظم غرفها ، ذلك فضلاً عما يلوح على وجوههم من سمات المجد وعلامات الحسب . أفلا يكون كل هذا دليلاً على أنهم من أشراف الناس وخيرهم ؟ فقال : إن بلاد (المسكوف) كثيرًا ما أرسلت من أعاظم رجالها وأمرائها لتثير عواطف الأهالى الصربيين الموجودين فى بلاد البوسنة وتهيجهم على الحكومة . أليس من الجائز أن تكونوا من مستخدمى الدولة العلية أرسلتكم لمثل هذا الغرض ؟ وإنه إذ لم يكن لديكم ما يثبت لى حقيقة من أنتم ولا ما يستدل به عليكم فلا يمكننى أن أطلق سراحكم ولا أن أُخلى سبيلكم ، اللهمَّ إلاَّ إذا جاءَنى نبأ من البلاد التى سِحْتُم فيها يفيد أمركم ويبين لى حالكم .

وقد ساعدنى الحظ إذ وجدتُ وأنا أفتش فى جيبى ورقة قد كتب فيها سفير النمسا بباريس لمستخدمى الكمارك النمساوية ينهاهم فيها عن أن ينقضوا المتاع المختص بشقيق سموّ الجناب الخديو الذى يسافر متستراً باسم (محمد رستم بك) وفى معيته محسن راسم بك وثلاثة من الخدم ، فقلت له : ألا يكفيك فى إثبات ما ذكرنا أنْ أقدِّم لك ورقة من أحد رجال حكومتك بل من أعاظم مستخدميها ؟ فقال : نعم ؟ فأبرزت له تلك الورقة التى ما كاد يراها إلا خلّى سبيلنا ، وعند ذلك قلت له : يا سعادة المحافظ إنك بلغتَ منا ما أردتَ ، وإنّا كذلك نحب أن نبلغ منك ما نريد وليس ذلك إلاّ أن ننصح لك ألاّ تتسرع فى أمرك وألاّ تشتطّ فى حكمك ، فلقد أفضى بك تسرعك إلى أن تعامل الأمراء معاملة الوضعاء ، وأن تؤَاخذ الأبرياء مؤَاخذة السفهاء ، أرأَيتَ لـمّا أمرتَ بحضورنا فى الساعة الثالثة بعد الظهر هل تأخرنا أو جئنا طائعين ؟ أينبغى إذن أن يحيط بنا سور من عسكرك كأننا اقترفنا إثماً أو أتينا منكرًا ؟ ذلك فضلاً عن وقوفنا منتظرين نحو ثلث الساعة أمام الباب فوق المرمر ، ولا يخفَى عليكم ألمُ الانتظار خصوصًا فى ذلك الموقف البارد ! ثم أمرتم بالدخول وكانت أودتكم غاصة بالكراسى ، أَفلا كان يجمل بك ونحن ضيوفك وقوم غرباء فى بلادكم أن تأْذن لنا فى الجلوس ! وأبيتَ إلاّ أن نقف منك موقف المذنبين وأن نكون عندك فى مكان المجرمين ، وما أدراك أنى بسبب ما لحقنى من الكدر أشكوك إلى حكومتك النمساوية التى

نشأتُ فيها وتربيتُ فى بلادها ، وأعرفُ عظماءَها وكبراءَها ، وأخى صاحب الأسرة الامبراطورية ، وفوق ذلك فإنى أعرف ابن والى بلاد البوسنة (الكونت كلى) وكان معى فى فصل واحد أيام التعليم فى فينا ، فكنتَ تساء مِن وراء ذلك إساءَة بالغة وتُضَرُّ ضرراً عظيماً . ولكن لتعلم أننا من الكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ، ولكى أبين لك أن العفو من شيم الأمراء وأخلاقهم وأنهم أقرب إلى الصفح منهم إلى الانتقام ، فقد عفوتُ عنك وسامحتك .

ثم غادرناه ورجعنا إلى الفندق ضاحكين من تلك الحادثة التى فاجأتنا على غير انتظار .

* * *

ختام السفر والرجوع إلى مصر

وفى صباح اليوم الثانى حيث كانت الساعة السابعة ركبنا القطار الذى وصلنا فيه إلى « أجرام » عاصمة بلاد « قرواسيه » ، ومن تلك البلدة ركبنا القطار الذى يوصِّلنا إلى « تريستا » ، ومن هناك أبحرنا قافلين إلى أوطاننا .

وهنا يجدر بى أن أشكر من صميم فؤَادى (سعادة صديقى المفضال محسن راسم بك) حيث أنه – حفظه اللهُ – رافقنى فأحسن المرافقة ، ووافقنى فأجمل الموافقة ، وقد شاطرنى ما عانيته من تعب ومشقة ، وما عاينتُه من راحة وسرور فى طول ذلك السفر الذى أسفر لى عن حسن شمائله وجميل خلاله وكرم أخلاقه ورقة عواطفه . ولا غَرْو ؛ فذلك ما كنت أنتظره من شاب مهذب قد تربَّى فى حِجر النعمة والسعادة ، ونشأ فى مهد الفضيلة والكمال .

* * *

كلمة الختام

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهمَّ يا من بيدك الهداية والعصمة من الغواية ، أبرأ إليك يا ذا القدرة والطَّوْل من القوَّة والحوْل ، وأعوذُ بك من نزغات اللسان ونزعات الجنان ، وأستمنحك العفو من سَقْط الكلام وفلتات الأقلام ؛ فلسنا من أهل البراعة فى اليراعة ، ولا مِنَ عَياهل التعبير فى التحبير ، وندعوك أن لا تؤَاخذنا ببادرة ، ولا تعاملنا يا مولانا إلاَّ بما أنت أهله من العفو والكرامة ، فأنت أهل التقوى وأهل المغفرة . اللهمَّ إنّا نحمدك حَمْدَ مَن أرسلتَ إليه من جميل نعمائك ، وأفضتَ عليه من جزيل آلائك ، ما ضَعُفَ عن تَقفِّيه ذكرُه ، وعجز عن توفية شكرُه ، فإنك يا ربنا أجلّ وأعلى من أن تُفيد من ثناء عبدك على عطائك ورفدك . وإن فيما أثنيتَ على نفسك – تعالت أسماؤُك – ما لا يبلغ العبادُ حدَّه ، ولا يستطيعون على مرّ الأدهار عدَّه ؛ فأنتَ مفيض الخير ، ومنك الثناء، وأنت مصدر الحمد ، ومِن لَدُنك العطاء .

وأشكرك بما تعيننى على أدائه من صيغ الثناء والحمد على ما قوَّيتنى وهديتنى إلى سياحتى هذه ، التى لولا معونتك وفضلك ما نقلتُ إليها قدمًا ولا جرَّدتُ لها قلمًا ، ولكن أبَى إحسانك

سبحانك إلاَّ أن أنلْتَ مسلمًا يحب المسلمين مأمولَه وساعدتَه بمحض كرمك على أن يطالع بنفسه أحوالَهم ويكتنه أخبارهم ويتبحَّث آثارهم ؛ فإذا وجدهم فى عافية وسرور شاركَهم فى جذلهم وشاطرهم فى سرورهم ، وإنْ هو رآهم على ما لا يحب من وهن العزيمة وانشقاق العصا قاسَمَهم كدَّهم وساهمهم كدَرهم ، وعلى كلتا الحالتين إذا هو رأى بعضهم على الطريقة المُثلَى عضَّدَهم وحثَّهم ، أو ألفَى غيرهم على المَحَجَّة السوأى نصح لهم ووعظهم بقدر ما تمكنه الأحوال وتسمح له الظُروف .

ولقد ارتحلت إلى بلاد البوسنة فرأيت – ولله الحمد – مسلميها على أحسن ما يكون من القوَّة والمَنعة والحب لدينهم والتمسك بأخلاقهم والتشبث بعوائدهم ، نعم وإن يكن داهمهم صَرْفُ الليالى ، وعكست حظَّهم الأيام ، فأصبحوا مَسودين لسواهم ، بعد ما كانوا كرماء سادة ، وأمسوا مَسوسين لغيرهم بعد أن كانوا عظماء قادة ، فلا شك أنَّ حفاظَهم وإباء نفوسهم وشَمَمَ أنوفهم وأخذهم بعصبيتهم ستُدين لَهم إنْ شاءَ الله رؤُوسَ الأيام وتسمو بهم بحوْل الله إلى أرفع مقام .

على أن الذى يَعْجُم أعواد المسلمين ويستجلى عوائدهم وأخلاقهم – سواء فى مشارق الأرض أو مغاربها على اختلاف ألسنتهم وألوانهم – لا يتمارى فى أخذهم بتلك الأسباب وسيرهم على هذه المبادئ حتى كأنما رمى بآمالهم أجمعين عن قوس واحدة .

ترى المسلم الهندى مثلاً مشغوفًا بأخيه المغربىّ متمنيًا له السعادة ، كما ترى البوسنوى كلفًا بأخيه العثمانىّ راجيًا له

السيادة . ﴿ إنما المؤْمنون إخوة ﴾ لا يثنيهم عن ذلك الولاء الكبير والإخلاص المتناهى اختلاف الأجناس وتباين العناصر ، بل ولا شَطّ الأقاليم وبُعْدُ ما بين المَواطن ؛ (إذ لا وطنية فى الإسلام) .

كأنَّ بلاد الإسلام وهى متبعثرة على سطح المسكونة منفسمة شعوبًا وقبائل قد تماسكت جوارحها واتصلت جوانحها بأسلاك الكهرباء ، وما ذلك إلاَّ سِرٌّ مِنْ أسرار الله وَصَلَ ما بين تلك الأفئدة المتنائية بأوثق رباط حتى كأنما الإسلام جسم واحد ، تدبُّ فى أعضائه النامية روحٌ واحدة ، فإذا لُكِزَ صدره فى المشرق تصدَّع جانبه فى المغرب ، أو اشتدّ ظهرُه فى دار السعادة قويت شوكتُه فى دار السلام .

إيه لو رأيتَ أيها المسلم الكَلِفُ بدينه معشرَ المسلمين يتنسَّمون الأخبارَ عن أحوال إخوانهم النائين، وكلَّ قبيل لبريد الإسلام ، يتلمسون الأنباء ويتحسسون زَوْرة المسلم القَصِيِّ حتى إذا هُمْ ظفروا بمقَدِمه احتفوا به والتفُّوا حوله يتلقطون كلمَه ويتسَقَّطُون لفظَه ، يسائلونه عن عشيرته ،ويستنبئون منه أحوالَها؛ عَساهم يسمعون خبرًا جديدًا يكون عُلالة لأكبادهم الحرَّى وأفئدتهم المجروحة . أو لعلهم يشيمون بارقةَ أمل فى نهوض الإسلام بعد ما أوهت قوائمَه الليالى وفتَّت سواعدَه الأيام .

أسألك اللهمَّ وأبتهل إليك أن تَجْبُرَ كَسْرَهم ، وتُقَوِّم أمرهم، وتجمع كلمتهم ، وتؤلف بين قلوبهم ، وتُثَبِّتَ أقدامَهم، وتؤَيِّدهم بروح منك ، وأنْ تُقَوِّيهم على العمل والجدّ حتى يقوموا بأَوَدهم

ويفوزوا فى هذا المعترك؛ معترك الحياة . واحفظ اللهمَّ ملوكَ الإسلام والأمراء الكرام ، رافعى منار الدين وحماة الشريعة الغراء ، وأيِّد سلطانهم ، وأعْلِ كلمتهم ، وقوِّ شوكتهم وصَوْلَتَهم ، وأدِم ملكَهم ودولَتهم ، خصوصًا صاحب المقام الأسمَى ووارث الخلافة العظمى :حامى حِمَى الملة والدين ، وناشر لواء العدل بين العالمين، ربَّ التاج والصولجان ، مولانا الغازى فى سبيل الله السلطان عبد الحميد خان ، لا زال النصرُ عقيدهُ وحليفَه، والعزُّ ضجيعَه وأليفَه ما دام لسانٌ فى فم إنسان . واحرُسْ بعينك التى لا تنام صاحبَ السموّ مؤسِّس أركان الحرية ، وموطِّد دعائم السلام ، الساهر على إصلاح أمور أمته ، والعامل على ارتقاء شؤون رَعيته ، مَنْ عَمَّ فضلُه وعدلُه القاصى والدانى ، خديو مصر مولانا عباس باشا حلمى الثانى متَّعَ اللهُ رَعيَّتَه برعايته ، وحقق لها ما فى أمنيته .

وصَلِّ اللهمَّ وسَلِّم على مَهْبَط وحيك ، ومبعث رسالتك ، وحجتك على عبادك ، الداعى إلى الخير بأمرك ، والشفيع عندك بإذنك : سيِّدنا محمد النبى الأمىّ ، وعلى آله وأصحابه الذين عزروه ونصروه وجاهدوا معه فى الله حقَّ جهاده ، وباعوا مُهَجَهم فى سبيله ، وضحُّوا نفوسهم لِمَرْضاته ، حتى قويت دعامة الدين وعزَّ مكانه وامتدّ سلطانه .

اللهمَّ اهدنا إلى طريقهم ، وأجْرِنا على سنتهم ، واقْبَلْ صالحَ أعمالنا ، واعْفُ عن زلاتنا ، واحشرنا برحمتك فى زمرتهم حتى نظفر بالغاية من حسن الختام .

* * *

فهرست

الأعلام والمواضع والملل والعملات الخ . . .

(أ)

(د)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ط)

(ع)

(ن)

* * *

فهرست الكتاب

رقم الإيداع : ١٩٩٧/٥٩٠٦

الترقيم الدولى : I.S.BN. 977- 241 - 202 - 0



صورة المؤلف رحمه الله

عام ١٩٠٠م وهو تاريخ رحلته